مكتبة نوبل

١٩٥٧

ألبير كامو

• المقصلة
• أعراس

ترجمة جورج طرابيشي



* المقصلة

* أعراس





المؤلف: ألبير كامو
الكتاب: المقصلة
أعراس
ترجمة: جورج طرابيشي
تصميم الغلاف: رولا ماجد
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠٠٧
الطبعة الثانية: ٢٠١٤

Author: Albert Camus
Title: Guillotine
Noces
Translator: Georges Tarabichi
Cover designed by: Roula Majed
P.C.: Al-Mada
First Edition: 2007
Second Edition: 2014

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول -
تلفاكس: ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٦ - ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٧
www.daralamada.com Email: info@daralmada.com

سورية - دمشق ص.ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٢٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box : 8272 or 7366. - Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289

بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
Email: almada112@yahoo.com



ألبير كامو

* المقصلة
* أعراس

ترجمة

جورج طرابيشي






مكتبة
الفكر الجديد

تنبيه من الناشر الفرنسي

كتبت هذه المقالات الأولى، التي نعيد طبعها اليوم، بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٧ ، ثم طبعت في عدد صغير من النسخ عام ١٩٣٨ في مدينة الجزائر. وهذه الطبعة الجديدة لا تدخل عليها أي تعديل، رغم أن مؤلفها لم يكف عن اعتبارها "محاولات" Essais، بالمعنى، الدقيق والحصري للفظة.




مكتبة
الفكر الجديد

المقصلة




مكتبة
الفكر الجديد

في عام ١٩٥٥، شرع آرثر كوستلر في شن حملة صحفية للمطالبة بإلغاء عقوبة الإعدام في إنكلترا. وبعد حملته هذه بمدة قصيرة من الزمن وافق مجلس العموم البريطاني على إلغاء هذه العقوبة، ولكن مجلس اللوردات المحافظ حال دون ذلك. وفي عام ١٩٥٧، كتب ألبير كامو دراسته ليضم صوته إلى صوت كوستلر، ويطالب بإلغاء عقوبة الإعدام في فرنسا.

المترجم

دمشق ١٩٥٩




مكتبة
الفكر الجديد

"خنق الجلاد الكردينال كارافا بخيط حريري فانقطع، فاضطر إلى معاودة ذلك مرتين. نظر الكردينال إلى الجلاد دون أن يتنازل فيفوه بكلمة واحدة".

ستندال

"دوقة باليانو"

قبيل حرب ١٩١٤ بقليل، حُكم بالموت في مدينة الجزائر على قاتل ارتكب جريمة مثيرة للاستنكار حقاً (فقد ذبح أسرة من المزارعين مع أطفالها). كان عاملاً زراعياً، وقد قتل تحت سيطرة نوع من هذيان الدم، لكن مما زاد في خطورة جرمه كونه قد سرق ضحاياه. أثارت القضية ضجة عظيمة. وساد اعتقاد عام بأن قطع الرأس عقوبة خفيفة بالنسبة لمثل هذا الوحش. هذا ما كان، على ما قيل لي، رأي والدي الذي ثار استنكاراً لقتل الأطفال على الأخص. وإن أحد الأشياء النادرة التي أعرفها عنه، على كل حال، أنه أراد أن يشهد تنفيذ الحكم، للمرة الأولى في حياته. ونهض ليلاً ليذهب إلى مكان التنفيذ، وسط جمهرة كبيرة من الشعب. أما ما رآه، ذلك الصباح، فلم يروِ لأحد عنه شيئاً. وتروي أمي فقط أنه عاد كالعاصفة، متجهم الوجه، ورفض أن يتكلم، وتمدَّد لفترة من الزمن على السرير ثم أخذ فجأة يتقيأ. كان قد اكتشف الحقيقة التي تختفي تحت الصيغ الكبيرة التي تُقنّع بها. فبدلاً من التفكير بالأطفال المذبوحين، لم يعد بوسعه ألا يفكر بذلك الجسم المختلج الذي أُلقي به على لوح خشبي لتقطع عنقه.



لا بد لنا من الاعتقاد بأن هذا العمل الطقسي هو من الفظاعة بحيث استطاع أن يقهر استنكار رجل بسيط ومستقيم، وبحيث لم يكن للقصاص الذي كان يقدر أن القاتل استحقه مئة مرة من أثر آخر سوى أنه سبب له التقيؤ.

وحين تدفع العقوبة القصوى الرجل الشريف المفروض فيها أنها تحميه إلى الغثيان، يبدو عندئذ من الصعب الزعم بأنها تهدف، كما كان يجب أن تكون وظيفتها، إلى إحلال المزيد من الأمان والنظام في المجتمع. بل إن الحقيقة الصارخة تظهر على العكس أن هذه العقوبة لا تقلّ وحشية عن الجناية، وأن هذه الجريمة الجديدة، بدلاً من أن تغسل الإهانة التي أُلحقت بالهيئة الاجتماعية، تزيد في بشاعة الجريمة الأولى. وهذا صحيح جداً بحيث لا يجرؤ أحد على الكلام مباشرة عن هذا الاحتفال. ولقد ألف الموظفون والصحفيون المكلفون بالكلام عنه، وكأنهم مدركون لما فيه من إثارة وعار في آن واحد، نوعاً من لغة طقسية، لا تتجاوز بعض الصيغ المقننة. وهكذا نقرأ، ساعة الإفطار، في زاوية من زوايا الصحيفة، أن المحكوم عليه قد "سدَّد دينه للمجتمع"، أو أنه "كفَّر"، أو أن العدالة أخذت حقها في "الساعة الخامسة". والموظفون يتكلمون عن المحكوم عليه بطريقة غير مباشرة، ولا يدعونه بهذا الاسم، وأحياناً يشيرون إليه باسمه المختصر "م.ب.ع" [1]. إنهم لا يكتبون عن العقوبة القصوى، إذا صحَّ القول، إلا بصوت خافت. ونحن، في مجتمعنا المتمدن جداً، نعرف أن المرض يكون خطيراً حين لا نجرؤ على الكلام عنه مباشرة. ولقد اقتصرت الأسر البرجوازية، لمدة طويلة، على القول إن

---

١ . أي المحكوم بالإعدام (المترجم).



الابنة البكر كانت ضعيفة الصدر، أو إن الأب كان يشكو من "ورم"، لأنها كانت تعتبر السل والسرطان أمراضاً مخزية بعض الشيء. وهذا يصح أكثر على عقوبة الموت بلا ريب، ما دام جميع الناس يحاولون ألا يتكلموا عنها إلا بكنايات. إنها بالنسبة للمجتمع كالسرطان بالنسبة للفرد، مع فرق واحد وهو أن ما من أحد تكلم قط عن ضرورة السرطان. إنهم لا يترددون، على العكس، في تصوير عقوبة الموت على أنها ضرورة مؤسفة، أي أنها تضفي طابع الشرعية على القتل، ما دامت ضرورية، وأن من المستحسن عدم الكلام عنها، مادامت مؤسفة.

لكني أنوي، على العكس، أن أتكلم عنها بفجاجة، لا لأني أحب الفضيحة، ولا بدافع من انحراف في الطبيعة، على ما أعتقد. لقد كنت دائماً أشمئز، ككاتب، من بعض التساهل. وأعتقد، كإنسان، أن المظاهر المنفرة لوضعنا البشري ينبغي أن تواجه بصمت، إذا كانت محتومة. لكن حين يسهم الصمت أو حيل اللغة في الإبقاء على استغلال يجب أن يُتدارك أو على تعاسة يمكن أن يخفف من وطأتها، فليس هناك من حل آخر إلا الكلام بوضوح وإظهار البذاءة التي تختفي تحت معطف الكلمات. إن فرنسا تشاطر إسبانيا وانكلترا الشرف الجميل بأنها بلد من آخر البلدان، في هذا الجانب من الستار الحديدي، التي احتفظت بعقوبة الموت في ترسانة وسائل القمع. إن بقاء هذا الطقس البدائي لم يكن ممكناً عندنا لولا عدم مبالاة الرأي العام أو جهله، هذا الرأي العام الذي لا يعبِّر عن رأيه إلا بالجمل الاحتفالية التي لُقنها. إن الكلمات تفرغ من معناها، حين ينام الخيال. إن شعباً أصم يسجل بلا اكتراث إدانة إنسان. لكن إذا ما أظهرنا الآلة، وجعلناه يلمس الخشب والحديد، وأسمعناه صوت الرأس



الذي يسقط. فإن الخيال الجماهيري، الذي يستيقظ فجأة، سيستنكر في آن واحد هذه المفردات وهذا التنكيل.

حين كان النازيون يقومون في بولونيا بالإجهاز على الرهائن إجهازاً جماعياً، كي يتجنبوا أن يصيح هؤلاء الرهائن بعبارات التمرد والحرية، كانوا يكمون أفواههم برباط مجصص. ولا يمكننا، بدون وقاحة، أن نشبِّه نصيب أولئك الضحايا الأبرياء بنصيب المجرمين المحكومين. لكن علاوة على أن المجرمين ليسوا هم الوحيدين الذي يُعدمون بالمقصلة في بلادنا، فإن الطريقة لا تزال هي هي. إننا نختق تحت عبارات مكتومة تنكيلاً لا يمكننا أن نؤكد شرعيته قبل أن نتمعّن فيه على حقيقته. وبدلاً من القول إن عقوبة الموت ضرورية أولاً، وإن المناسب عدم الكلام عنها بالتالي، ينبغي أن نتكلم على العكس عما عليه هي فعلاً وأن نقول، بعد ذلك، هل يجب أن تعتبر ضرورية، كما هي عليه؟..

أما أنا فلا أعتقد أنها لامجدية فحسب، بل أرى أنها مضرةٌ عظيم الضرر أيضاً. وينبغي أن أسجل هنا هذه القناعة، قبل أن أدخل في لُبِّ الموضوع. وليس من الاستقامة بشيء أن أسمح بالاعتقاد بأنني توصلت إلى هذه النتيجة بعد أسابيع من التمحيص والبحث وقفتها على هذه المسألة. لكن قد لايكون من الاستقامة بشيء أيضاً أن أنسب قناعتي إلى فرط العاطفة وحده. إنني بعيد، على العكس، أبعد ما يمكن عن تلك الرقة الرخوة التي كان ينشرح لها صدر الإنسانيين والتي تختلط فيها القيم والمسؤوليات، وتتعادل الجرائم، وتفقد البراءة حقوقها نهائياً. إنني لا أعتقد، بخلاف العديد من المشاهير المعاصرين، أن الإنسان هو، بطبيعته، حيوان اجتماعي. وفي الحق، إنني أعتقد العكس. لكني



أعتقد، وهذا مختلف جداً، أنه لا يستطيع أن يعيش بعد الآن فصاعداً خارج المجتمع الذي باتت قوانينه ضرورية لبقائه المادي. ينبغي إذن أن تقرر المسؤوليات حسب سلم معقول وناجع من قبل المجتمع نفسه. لكن القانون يجد تبريره الأخير في الخير الذي يسبّبه أو لا يسببه للمجتمع في مكان وزمان معطيين. إنني لم أستطع أن أرى في عقوبة الموت، طوال سنوات، إلا عذاباً لا تحتمله المخيلة، وفوضى كسلى يدينها عقلي. بيد أنني كنت مستعداً للاعتقاد بأن الخيال يؤثر على حكمي. لكنني في الحقيقة لم أجد شيئاً طوال هذه الأسابيع لم يعزز قناعتي، أو عدّل من أفكاري، بل انضافت، على العكس، حجج جديدة إلى حججي القديمة. وإنني أشاطر اليوم قناعة كوستلر مطلق المشاطرة: إن عقوبة الموت تلطخ مجتمعنا، وأنصارها لايستطيعون تبريرها منطقياً.

من المعروف أن الحجة الكبرى لأنصار عقوبة الموت هي عبرة القصاص. فالرؤوس لا تقطع لمعاقبة أصحابها فحسب، بل أيضاً لتخويف من تغريه التجربة بتقليدهم، عن طريق مثال مخيف. إن المجتمع لا ينتقم، بل يريد فقط أن يقي نفسه. إنه يشهر الرأس كي يقرأ عليه المرشحون للجريمة مستقبلهم فيتراجعون.

قد تكون هذه الحجة ذات تأثير لو لم نكن مرغمين على أن نلاحظ:

١- إن المجتمع نفسه لا يؤمن بالعبرة التي يتكلم عنها.

٢- إنه لم يثبت أن عقوبة الموت قد جعلت قاتلاً واحداً، مصمماً على أن يكون قاتلاً، يعدل عن ذلك، وإنه لمن الثابت بالمقابل أنه لم يعد لها أي تأثير، إن لم يكن تأثير إغراء، على آلاف المجرمين.

٣- إنها تشكل، من ناحية أخرى، عبرة كريهة لايمكن لأحد أن يعرف إلى ما ستؤدي نتائجها.



إن المجتمع، أولاً، لا يؤمن بما يقوله. ولو كان يؤمن به حقاً، لأظهر الرؤوس، ولأتبع عمليات التنفيذ بحملة دعائية كالحملة التي يخصصها عادة للقروض القومية وللأصناف الجديدة من المشروبات. لكننا نعرف، على العكس، أن عمليات التنفيذ في بلادنا ما عادت تتم بشكل علني، بل هي تجري في باحة السجون أمام عدد قليل من الأخصائيين، وقليل من يعلم سبب ذلك ومتى كان. إن هذا التدبير حديث نسبياً. فقد تمت آخر عملية إعدام علنية عام ١٩٣٩، أُعدم فيها ويدمان الذي اقترف عدة جنايات، شاعت بعدئذ موضتها لجرأتها.

ففي ذلك الصباح، تجمّع جمهور كبير في فرساي، وكان بينهم عدد كبير من المصورين. وأمكن أن تؤخذ صور فوتوغرافية بين اللحظة التي عرض فيها ويدمان على الجمهور، واللحظة التي قُطع فيها رأسه. وبعد بضع ساعات، نشرت "باريس - سوار" صفحة مصورة عن ذلك الحدث (الفاتح للشهية). وهكذا استطاع الشعب الباريسي الطيب أن يتبين أن الآلة الخفيفة الدقيقة التي استخدمها منفذ الإعدام مختلفة عن المقصلة التاريخية اختلاف سيارة جاغوار حديثة عن سياراتنا القديمة التي من طراز ديون - بوتون. وبخلاف ما كان متوقعاً، نظرت الإدارة والحكومة بعين الاستياء الشديد إلى هذه الدعاية الممتازة. وأعلنتا أن الصحافة أرادت أن تتملق غرائز قراءها السادية. وهكذا تقرر ألا ينفذ الإعدام علنياً مذ ذاك فصاعداً، وكان هذا تدبيراً سهّل، إلى حد ما، من عمل سلطات الاحتلال الألماني.

إن المنطق، في هذه القضية، لم يكن مع المشرع. فقد كان ينبغي، على العكس، أن يُزاد في أوسمة مدير "باريس - سوار" وسام جديد



لتشجيعه على اتقان العمل أكثر في المرة القادمة. وبالفعل، إذا كنا نرغب في أن تكون للعقاب عبرة، فليس علينا فقط أن نضاعف من عدد الصور، بل أيضاً أن ننصب المقصلة في ساحة كونكورد، في الساعة الثانية من بعد الظهر، وأن ندعو الشعب قاطبة، وأن نبث الاحتفال من التلفزيون ليشاهده من كان غائباً. يجب أن نفعل ذلك، أو أن نكف عن الكلام عن العبرة. كيف يمكن لجريمة قتل سرية تُقترف ليلاً في باحة سجن أن تكون ذات عبرة؟ إن أكثر ما يرجى منها هو إعلام المواطنين دورياً بأنهم سيموتون إذا ما قتلوا. وهذا مستقبل يمكن أن يوعد به أيضاً من لا يقتلون. وإذا كنا نريد للعقوبة أن تكون ذات عبرة حقاً، فينبغي أن تكون مخيفة. ولقد كان تيو دي لابوفوري، ممثل الشعب عام ١٧٩١، ونصير التنفيذ العلني، أكثر منطقية حين أعلن في الجمعية الوطنية: "لا بد من مشهد رهيب لردع الشعب".

أما اليوم، فلا وجود لمثل هذا المشهد، بل كل ما هنالك عقاب يعرفه الجميع عن طريق السمع، وبين الحين والحين نبأ عن تنفيذ حكم إعدام، ولكنه مصاغ بحيث يأتي وقعه مخففاً. فكيف لمرشح لارتكاب الجريمة أن يفكر، لحظة اقترافه الجرم، بعقوبة يجهد المجتمع في جعلها مجردة أكثر فأكثر! وإذا كنا نريد حقاً أن يحتفظ دوماً بهذه العقوبة في ذاكرته، كي توازن في البداية ثم تعكس فيما بعد قراره المجنون بالقتل، أفلا ينبغي أن نسعى إلى ترسيخ هذه العقوبة وواقعيتها الرهيبة ترسيخاً عميقاً في جميع الحساسيات، بمختلف وسائل الصورة واللغة؟

وبدلاً من أن نتكلم بإبهام عن دين سدَّده أحدهم ذات صباح إلى المجتمع، ألن تكون عبرة أنجع إذا ما استفدنا من مثل هذه المناسبة الجميلة لنذكِّر كل من تراوده نفسه بتفاصيل ما ينتظره؟ وبدلاً من أن



نقـول: "إذا قـتلت، فـسـوف تكفّـر على المقـصلة"، أليس من الأفـضل أن نقول، بغاية العـبرة: "إذا قتلت، فسوف يلقى بك في السجن طوال شهور أو سنين، ويتقـاسمك يأس مضنٍ ورهبة متـجددة دوماً، إلى أن نتسلل، ذات صبـاح، إلى زنزانتك، وقـد خلعنا أحذيتنا كي تكون مـفاجـأتنا لك أشد أثنـاء نومك الذي سيـسحقك بعد قلق الليل. سوف ننقض عليك، ونوثق معصـميك خلف ظهرك، ونقص ياقـة قميـصك وشعـرك بالمقص إذا كـان هناك مـوجب. ورغـبة فـي المزيد من الاتقـان، سـوف نـربط ذراعـيك بوساطة حزام جلدي، حتى ترغم على أن تكون محدودباً فتقدم بالتالي رقبة بارزة كـما ينبغي. ثم سوف نـحملك، يسندك رجلان من ذراعيك، وقـدماك تزحفان إلى الخلف عبر الممرات. وأخيراً، تحت سماء داجية، سوف يمسك بك أحد الجلادين من أسفل بنطالك ويرمي بك أفـقيـاً على لوح خشبي، بينما يثـبت آخـر رأسك في فـجـوة، ويُسـقط ثالث من علو مـتـرين وعـشـرين سنتيمتراً، ساطوراً يزن ستين كيلو سيحز عنقك كموسى حلاقة".

ولكي تكون العبرة أنجع أيضاً، ولكي يصبح الخوف الذي ينتج عنها قـوة عـمـيـاء وقـاهرة في داخل كل منا، قـوة تـكفي للتـعـويض فـي اللحظة المناسبة عن الرغـبة التي لا تقاوم في القتـل، ينبغـي أن نذهب إلى أبعد من ذلك أيضاً. فبدلاً من أن يدفعنا طيشنا المتعجرف، المعروف عنا، إلى الفخر بأننا اخترعنـا هذه الوسيلة السريعة والإنسـانيـة [1] لقتـل المحكوم عليـهم: ينبـغي أن ننشـر بآلاف النسخ، وندرّس في المدارس والكليـات، الشـهادات والتقارير الطبـية التي تصف حالة الجسم بعد التنفيذ. وسوف نوصي بخاصة بطبع ونشـر تقرير حديث قـدمه لأكـادميـة الطب الدكتـوران

---

١ . يعتـقـد الدكـتور المتـفائل غيوتـان (المقصلة تدعى بالفرنسـية غيوتين) أن المحكوم عليه لايشعر بشيء . وأكثر ما هناك "برودة خفيفة في العنق" .



بنيدوليفر وفورنيه. إن هذين الطبيبين الشجاعين اللذين طُلب إليهما، لمصلحة العلم، أن يفحصا أجسام المنكل بهم بعد التنفيذ، قد قدّرا أن من واجبهما تلخيص ملاحظاتهما الرهيبة: "إذا استطعنا أن نسمح لأنفسنا بتقديم رأينا حول هذا الموضوع، فإن مثل هذه المشاهد فظيعة الإيلام. إن الدم يخرج من الأوعية بقوة نبض الوداجين المقطوعين، ثم يتخثر. وتتشنج العضلات وتتقلص ليفاتها بطريقة مذهلة. ويتموج المعي، وينبض القلب بحركات لامنتظمة، ناقصة، أخاذة. ويتقلص الفم في لحظات معينة بتعبير اشمئزاز.. وصحيح أن العينين بلا حراك، في ذلك الرأس المقطوع، متسعتان، لكنهما، لحسن الحظ، لا تنظران. وإذا لم يكن فيهما ذلك الكدر وذلك اللون الحليبي الذي تتلون به الجثث، إلا أنهما باتتا لا تتحركان. إن شفافيتهما حية، لكن شخوصهما ميت. وهذا كله قد يدوم دقائق، بل ساعات، لدى أفراد بلا علل: إن الموت ليس فورياً... وعلى هذا فإن كل عنصر حيوي يظل على قيد الحياة بعد قطع الرأس.. ولايبقى للطبيب إلا ذلك الانطباع عن تجربة فظيعة، عن عملية تشريح قاتلة، يتبعهما دفن سابق لأوانه[١]".

أشك في أن يكون هناك كثرة من القراء يستطيعون أن يقرؤوا هذا التقرير المروع دون أن يمتقعوا. نستطيع إذن أن نعتمد على ما فيه من عبرة وعلى قدرته على التخويف. ولا شيء يمنع من أن نضيف إليه تقارير الشهود التي تثبت أيضاً صحة ملاحظات الطبيبين. يقال، مثلاً، إن وجه شارلوت كورداي [٢] قد احمّر، بعد أن أُعدمت، من صفعة

---

١ . مجلة "عدالة بلا جلاد" ، العدد الثاني ، حزيران ١٩٥٦ .

٢ . فتاة فرنسية أُعدمت لأنها اغتالت السياسي مارا في الثورة الفرنسية (المترجم) .



الجلاد. ولن ندهش عند سماعنا ملاحظات أقرب عهداً. فقد وصف مساعد جلاد، وهو من الأشخاص الذين لا يشتبه في فرط عاطفيتهم وحساسيتهم، ما أرغم على رؤيته على النحو التالي: "إنه مجنون مصاب بنوبة حقيقية من الهذيان العصبي، ذاك الذي ألقينا به تحت الساطور. سرعان ما مات الرأس، لكن الجسم وثب، بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة، في السلة وشد على الحبال. وبعد عشرين دقيقة، في المقبرة، كان لا يزال يرتجف" [١]. ويروي الكاهن الأب ديفويود، المرشد الحالي لسجن لاسانتيه، الذي لا يبدو أنه يعارض عقوبة الموت، في كتابه "الجانحون"، القصة التالية البعيدة المغزى، التي تجدد قضية المحكوم عليه لانغيل الذي كان رأسه المقطوع يجيب عند النداء باسمه: "كان المحكوم عليه، صبيحة التنفيذ، متعكر المزاج ورفض غوث الدين. ولما كنا نعرف أعماق قلبه وحبه لزوجته التي كانت عواطفها مغرقة في مسيحيتها، فقد قلنا له: "هيا، حباً بزوجتك، اخشع قليلاً قبل الموت". ورضي المحكوم عليه، وخشع ملياً أمام المصلوب، ثم بدا عليه أنه بات لا يعير وجودنا انتباهاً. وحين نفذ الحكم فيه، كنا على مسافة قريبة منه. لقد سقط رأسه في الزنبيل الموضوع أمام المقصلة، وسرعان ما وضع الجسم في السلة. بخلاف العادة، أغلقت قبل أن يوضع فيها الرأس. واضطر المساعد الذي كان يحمل الرأس إلى الانتظار لحظة كي تفتح السلة من جديد. والحال أننا خلال هذه الوهلة الوجيزة من الزمن، تمكنا من رؤية عيني المحكوم عليه الاثنتين شاخصتين إليّ بنظرة تضرع، وكأنما تسألان صفحاً. وبحركة غريزية، رسمنا إشارة الصليب لنبارك الرأس، ثم

---

١ . ذكرها روجيه غرونيه في "الوحوش" . نشر غاليمار . وهذه الأقوال ثابتة الصحة .



طرفت الجفون، وأضحى تعبير العينين وديعاً، ثم انطفأت النظرة رغم أنها ظلت معبِّرة".

إن القارئ سيتقبل، حسب إيمانه، التفسير الذي يقترحه الكاهن. بيد أن هاتين العينين، "اللتين ظلتا معبرتين"، لا تحتاجان لأي تأويل.

أستطيع أن أذكر عدداً آخر من الشهادات لا يقل هلوسة. لكنني لا أستطيع، فيما يعنيني، أن أذهب إلى أبعد من ذلك. فأنا لا أقول، بعد كل شيء، إن عقوبة الموت ذات عبرة، بل هي تبدو لي، فيما هي عليه، جراحة غليظة تجري في شروط تجرّدها من كل ما يمكن أن يكون فيها من عبرة. أما المجتمع، على العكس، والدولة التي رأت من الأهوال ما رأت، فيمكنهما أن يتحملا هذه التفاصيل، وعليهما، ما داما يقولان بالعبرة، أن يحاولا إفساح المجال أمام الجميع ليتحملوها، حتى لايكون ثمة أحد على جهل بها، وحتى يزهد السكان جميعاً في الشر بعد أن حلّ الهلع في قلوبهم. وبغير هذه الطريقة، من يأملون في تخويفه بهذه العبرة التي تُحجب عن الأنظار باستمرار، بهذا التهديد بعقاب يصور على أنه وديع وسريع الزوال، بهذا العذاب المتّوج بأزهار البلاغة؟ يقيناً، إنهم لا يخوِّفون بذلك الناس الذين يعتبرون مستقيمين (وبعضهم مستقيم فعلاً)، لأنهم نيام في تلك الساعة، ولأن العبرة الكبرى لم تعلن لهم، ولأنهم سيأكلون فطائرهم في ساعة الدفن السابق لأوانه، ولأنهم سيطلعون على عمل العدالة، إذا ما قرؤوا الصحف، من بيان متصنع الحلاوة سيذوب كالسكر في ذاكرتهم. ومع ذلك، فإن هذه المخلوقات الوديعة تقدم أكبر نسبة من جرائم القتل. والكثيرون من هؤلاء الناس الشرفاء مجرمون يجهلون أنهم كذلك. ويرى أحد القضاة أن الغالبية



العظمى من القتلة الذين عرفهم ما كانوا يعلمون، وهم يحلقون ذقونهم صباحاً، أنهم سيقتلون مساء. فمن المناسب إذن، من أجل العبرة والأمن، أن يُشهر الوجه العاري للمحكوم عليه، بدلاً من أن يقنَّع، أمام جميع من يحلقون ذقونهم صباحاً.

لكن لاشيء من هذا. إن الدولة تموّه عمليات التنفيذ، وتحيط بالصمت هذه النصوص وهذه الشهادات. إنها لا تؤمن إذن بقيمة العبرة في العقوبة، اللهم إن لم يكن من قبيل التقليد ودون أن تتكلف مشقة التفكير. إنهم يقتلون المجرم لأنهم كانوا يقتلونه منذ قرون؛ وهم يقتلونه، على كل حال، بالطريقة التي حُدِّدت في أواخر القرن الثامن عشر. وعلى هذا فإنهم سيتبنون، بعامل الروتين، الحجج التي شاعت منذ قرون، آخذين على عاتقهم مخالفتها بتدابير اقتضاها تطور الحساسية العامة. إنهم يطبقون قانوناً دون أن يناقشوه، والمحكوم عليهم في بلادنا يموتون بصورة آلية باسم نظرية لا يؤمن بها المنفذون. ولو كانوا يؤمنون، لعلمنا ذلك ولتبنيناه على الأخص. لكن الدعاوة، علاوة على أنها توقظ، وقد تشبع بالفعل، غرائز سادية لا يمكن حساب نتيجتها، وتروي نفسها في النهاية ذات يوم عن طريق جناية جديدة، تهدد أيضاً بإثارة الاستنكار والاشمئزاز لدى الرأي العام. وتزداد صعوبة تنفيذ الإعدام بشكل متسلسل متتابع، كما نرى اليوم في بلادنا، إذا ما تترجمت عمليات التنفيذ هذه في صور حية في الخيال الشعبي. إن مَن يحتسي قهوته وهو يقرأ أن العدالة قد انتصرت، سيبصقها فيما لو قرأ أبسط التفاصيل. والنصوص التي ذكرتها قد تظهر بمظهر حسن بعض أساتذة الحقوق الجنائية الذين يعجزون عجزاً واضحاً عن تبرير هذه العقوبة المنافية لروح



العصر، فيعزّون أنفسهم بالقول، مع العالم الاجتماعي تارو، إن إماتة الإنسان دون إيلامه خير من إيلامه دون إماتته. لهذا ينبغي تأييد غامبيتا في موقفه، حين صوّت، وهو من خصوم عقوبة الموت، ضد مشروع قانون يتضمن إلغاء الإعلان الدعائي عن عمليات التنفيذ. وقال: "إذا ألغيتم فظاعة المشهد، إذا نفذتم الإعدام داخل السجون، فسوف تخنقون انتفاضة الرفض العامة التي ظهرت في السنوات الأخيرة، وستوطدون ركائز عقوبة الموت".

وبالفعل، ينبغي القتل علناً أو الاعتراف بأن الدولة لا تتمتع بسلطة القتل. وإذا كان المجتمع يبرر عقوبة الموت بضرورة العبرة، فعليه أن يبرر نفسه بجعله من الدعاية ضرورية. عليه أن يظهر يدي الجلاد في كل مرة، وأن يرغم المواطنين من ذوي الشعور المرهف على النظر إليهما، وأن يرغم معهم جميع من كانوا السبب، من بعيد أو قريب، في وجود هذا الجلاد. وإن لم يفعل ذلك، فإنه يعترف بأنه يقتل دون أن يعرف ما يقوله أو ما يفعله، وبأنه يقتل مع معرفته أن هذه التمثيليات الكريهة، العاجزة عن تخويف الرأي العام، لا تستطيع شيئاً سوى أن توقظ الجريمة أو أن تزرع البلبلة في المجتمع. ولعل المستشار السيد فالكو، وهو قاضٍ بلغ عتبة حياته القضائية، وهو خير من يستطيع أن يعبر عن هذه الحقيقة في شهادته التي تستحق أن تدرس: "...المرة الوحيدة التي رفضت فيها تخفيف العقوبة وأصدرت حكمي بإعدام المتهم، ظننت أنني سأشهد، رغم موقفي، عملية التنفيذ ببرود أعصاب. وعلى كل، لم يكن المتهم محبباً إلى النفس: فقد عذب ابنته الصغيرة وألقى بها في النهاية في بئر. حسناً ! بعد إعدامه، وطوال أسابيع بل أشهر، رزحت ليالي تحت كابوس



هذه الذكرى... لقد اشتركت في الحرب كسائر الناس ورأيت شباباً بريئاً يموت، لكني أستطيع القول إنني لم أشعر قط، أمام ذلك المشهد الفظيع، بتبكيت ضمير مثلما شعرت به أمام هذا النوع من الاغتيال الاداري الذي يسمى عقوبة الإعدام".

لكن، وبعد كل شيء، لماذا يؤمن المجتمع بهذه العبرة ما دامت لا تمنع الجريمة، وما دام تأثيرها، إن كان له وجود، غير واضح للعيان؟ إن العقوبة القصوى لا تستطيع أولاً أن تخيف من لا يعرف أنه سيقتل، أو من يعقد العزم على القتل في لحظة مفاجئة وينفذ جريمته تحت سيطرة الحمى أو الفكرة الثابتة، أو من قد يذهب إلى موعد للتفاهم فيحمل معه سلاحاً ليخيف الخائن أو الخصم ويستعمله مع أنه كان لا يريد ذلك، أو يعتقد أنه لا يريد. وبكلمة واحدة، إنها لا تستطيع أن تخيف الإنسان الذي يجد نفسه ملقىً في الجريمة كما يجد نفسه ملقىً في البؤس، ومعنى ذلك أنها عاجزة في معظم الحالات. ومن العدل أن نعترف أنها نادراً ما تطبق، في بلادنا، في مثل هذه الحالات، لكن هذه الـ "نادراً" وحدها تبعث القشعريرة في النفس.

فهل تخيف على الأقل ذلك الجنس من المجرمين الذين تزعم أنها تؤثر عليهم والذين يعيشون من الجريمة؟ هذا أبعد ما يكون عن الواقع. يقول كوستلر إنه في العصر الذي كان فيه النشالون يعدمون في إنكلترا، كان لصوص آخرون يمارسون مهازلهم بين الجمهور المحتشد حول المشنقة التي يشنق عليها زميلهم. إن إحصاء أُجري في مطلع هذا القرن في انكلترا يُظهر أن ١٧٠ من أصل كل ٢٥٠ مشنوقاً قد سبق لهم وشهدوا شخصياً تنفيذ إعدام أو إعدامين. وفي عام ١٨٨٦، كان ١٦٤ من أصل



١٦٧ محكوماً بالموت عرفتهم جدران سجن بريستول، قد شهدوا تنفيذ إعدام واحد على الأقل. إن مثل هذه الإحصائيات باتت غير ممكنة في فرنسا، بسبب السرية التي يحاط بها تنفيذ الإعدام. لكنها تسمح بالتفكير بأنه كان حول أبي، يوم التنفيذ، عدد كبير جداً من مجرمي المستقبل لم يصابوا بتقيؤ. إن القدرة التخويفية لا تنال إلا الوجلين الذين لم يخلقوا للجريمة وتعجز عن إخضاع من لا يمكن إخضاعهم. ويستطيع القارئ أن يجد في أي كتاب متخصص في هذا الموضوع الأرقام والوقائع الدامغة في هذا الصدد.

إلا أننا لا نستطيع أن ننكر أن البشر يخشون الموت. إن الحرمان من الحياة لهو بدون أدنى ريب أقصى عقوبة، ولابد أنه يثير فيهم ذعراً حاسماً. إن الخوف من الموت يبرز من أعمق أعماق الكائن المظلمة، ويجتاحه اجتياحاً. وغريزة الحياة، حين تهدَّد، تجن ذعراً وتتخبط في أردأ الهواجس. لقد كان هناك إذاً أساس من الحقيقة في إيمان المشرع بأن قانونه يستند إلى أغمض نوازع الطبيعية البشرية وأقواها. لكن القانون أبسط دوماً من الطبيعة. فهو حين يغامر في خفايا النفس العمياء، ليحاول السيطرة عليها، يجازف أيضاً بأن يكون عاجزاً عن تبسيط التعقيد الذي يريد تنظيمه.

وبالفعل، إذا كان الخوف من الموت أمراً بديهياً، فمن البديهي أيضاً أن هذا الخوف، مهما كان كبيراً، لم يكفِ قط لردع الأهواء البشرية. كان بيكون على حق إذ قال إن الهوى، مهما كان ضعيفاً، يستطيع أن يواجه ويسيطر على الخوف من الموت. إن الانتقام، والحب، والشرف، والألم، أو خوفا آخر، تتمكن من التغلب على هذا الخوف. وما يستطيع حب إنسان



أو حب بلد، أو ما يستطيع جنون الحرية أن يفعله، كيف لا يتمكن الإثم، والحقد، والغيرة، من فعله؟ إن عقوبة الموت تحاول منذ قرون، مع ما يرافقها غالباً من تفننات وحشية، أن تجابه الجريمة. لكن الجريمة تعاند مع ذلك. لماذا؟ لأن الغرائز التي تتصارع في الإنسان ليست، كما يريدها القانون، قوى ثابتة في حالة توازن. إنها قوى متبدلة تموت طوراً وتنتصر طوراً آخر. وتتغذى الحياة الفكرية من تصارعها المتتابع، مثلما يتألف التيار من تذبذبات كهربائية متقاربة بما فيه الكفاية. لنتصور سلسلة التذبذبات من حالة الشهوة إلى حالة عدم الشهية، من التصميم إلى العدول، هذه التذبذبات التي نمر بها جميعاً خلال يوم واحد، ولنضاعف إلى ما لا نهاية هذه التحولات، فتتكوّن لنا فكرة عن تكوين الحياة النفسية وتكاثرها. إن تفاوت هذه القوى يتم بشكل عام بسرعة أكبر من أن يسمح لقوة واحدة بالسيطرة على الكائن بأسره. لكن قد يحدث أن تطغى إحدى قوى النفس إلى حد تحتل معه مجال الشعور كله، ولا تستطيع أي غريزة، وإن كانت غريزة الحياة، أن تكبح عندئذ طغيان تلك القوة التي لا تقاوم. ولقد كان ينبغي، كي تكون لعقوبة الموت قدرة تخويفية فعلاً، أن تكون الطبيعة البشرية مختلفة عما هي عليه، وأن تكون مستقرة صافية استقرار القانون وصفاءه. لكنها ستكون عندئذ طبيعة ميتة.

إنها ليست كذلك. ولهذا فإن القاتل يشعر بنفسه بريئاً حين القتل، مهما بدا هذا غريباً بالنسبة لمن لا يعرف التعقيد البشري أو لم يشعر به في نفسه. إن كل مجرم يحكم على نفسه بالبراءة قبل صدور الحكم. فهو إن لم يقدّر أنه كان على صواب في عمله، يرى أن الظروف تعذره. إنه لا



يفكر ولا يتوقع. وإذا فكر فليتوقع أنه سيُعذر كلياً أو جزئياً. فكيف يخشى ما يعتبره بعيد الاحتمال كل البعد؟ إنه سيخشى الموت بعد إصدار الحكم لا قبل الجريمة. ينبغي إذن ألا يترك القانون، لكي يكون ذا قوة رادعة، أي أمل للقاتل، وأن يكون صارماً مسبقاً، وألا يقبل بشكل خاص بأي ظروف مخففة. فمن يجرؤ في بلادنا على المطالبة بذلك؟

وإذا ما جرؤ إنسان على المطالبة بذلك، ينبغي عليه عندئذ أن يأخذ بعين الاعتبار مفارقة أخرى من مفارقات الطبيعة البشرية. إن غريزة الحياة، وإن كانت أساسية، لا تزيد أهمية عن غريزة أخرى لا يتكلم عنها علماء النفس المدرسيون: ألا هي غريزة الموت التي تستلزم في بعض الأحيان دمار الذات ودمار الآخرين. ومن المرجح أن شهوة القتل غالباً ما تلازم شهوة الانتحار أو الفناء الذاتي [1]. وهكذا تكون غريزة البقاء مترافقة، بنسب متفاوتة، بغريزة الهدم. إن هذه الغريزة الأخيرة تستطيع وحدها أن تفسر تفسيراً كاملاً شتى الانحرافات، من إدمان على الخمر أو المخدر أو غيرهما، التي تقود الإنسان إلى دماره، دون أن يكون على جهل بذلك. إن الإنسان يرغب في الحياة، لكن من العبث أن نتصور أن هذه الرغبة ستسيطر على كل أعماله. إنه يرغب أيضاً في ألا يكون شيئاً، إنه يرغب فيما لا مردّ له وفي الموت من أجل الموت. وهكذا يحدث ألا يرغب المجرم في الجريمة فحسب، بل في الشقاء الذي يرافقها أيضاً، حتى - وبخاصة - حين يكون هذا الشقاء لا حدّ له. وحين تنمو هذه الرغبة وتسيطر، فإن تصور عملية الإعدام لا يستطيع ردع المجرم فحسب، بل

---

١ . نستطيع أن نقرأ أسبوعياً في الصحف عن بعض المجرمين الذين ترددوا طويلاً بين قتل أنفسهم أو قتل الآخرين .



من المرجح أيضاً أن يزيد في دوار الدوامة التي يضيع فيها. إنه يقتل عندئذ كي يموت بمعنى ما.

إن جميع هذه السمات تكفي لتشرح أن العقوبة القصوى، التي يفترض فيها أنها تخيف النفوس الغبيعية، خالية تماماً في الواقع من بديهيات علم النفس الأولى. إن جميع الاحصائيات، بما فيها الاحصائيات التي تخص البلدان التي ألغت عقوبة الإعدام كما البلدان الأخرى، تظهر أن ليس هناك من ترابط بين إلغاء هذه العقوبة وبين الإجرام[1]. إن الإجرام لا يزيد ولا ينقص. إن المقصلة موجودة، وكذلك الجريمة. وليس بين الاثنين رابطة قانون. وكل ما نستطيع استنتاجه من الأرقام الكثيرة التي جاءت بها الاحصائيات هو ما يلي: لقد كان عقاب الكثير من جرائم غير القتل، طوال قرون، هو الموت، ولم تستطع العقوبة القصوى، المطبقة مراراً وتكراراً، أن تزيل من الوجود أياً من هذه الجرائم. ومنذ قرون، لم تعد عقوبة الموت تطبق على هذه الجرائم. ومع ذلك فإن عددها لم يزدد، بل إن بعضها تناقص. وكذلك عوقب القتل بالموت طوال قرون، بيد أن سلالة قابيل لم تختف. وأخيراً فإن عدد جرائم القتل في الدول الثلاث والثلاثين التي ألغت عقوبة الإعدام، أو عدلت عن استعمالها، لم يزدد. فمن يستطيع أن يستنتج من هذا أن عقوبة الموت رادعة حقاً؟ إن المحافظين لا يستطيعون أن ينكروا هذه الوقائع ولا هذه الأرقام. إن جوابهم الوحيد والأخير له دلالته. إنه يفسر الموقف الغريب

---

١ . تقرير "اللجنة المختارة" الإنكليزية لعام ١٩٣٠ واللجنة الملكية الإنكليزية التي استأنفت الدراسة مؤخراً: "جميع الإحصائيات التي درسناها تؤكد لنا أن إلغاء عقوبة الموت لم يؤدِّ إلى زيادة في عدد الجرائم".



لمجتمع يحيط عمليات التنفيذ بجو من الكتمان مع زعمه بأنها ذات عبرة. يقول المحافظون: "لا شيء يثبت، بالفعل، أن عقوبة الموت ذات عبرة، بل من المؤكد أن آلاف القتلة لم يخشوها. لكننا لا نستطيع أن نعرف من أخافتهم؛ ولا شيء يثبت بالتالي أنها ليست بذات عبرة". وعلى هذا، فإن أعظم قصاص، القصاص الذي ما بعده من قصاص بالنسبة للمحكوم عليه، لا يقوم إلا على احتمال لا يمكن التثبت منه. إن الموت لا يتضمن درجات واحتمالات. إنه يثبت كل شيء، الجرم كما الجسم، في تخشب نهائي. بيد أنه مطبق في بلادنا باسم احتمال وافتراض. وحتى عندما يكون هذا الافتراض معقولاً، أفلا نحتاج إلى يقين لكي نسمح بأكثر الميتات يقيناً؟ والحال، أن المحكوم عليه يقطع إلى شطرين لا بسبب الجريمة التي اقترفها، بل بالأحرى بسبب جميع الجرائم التي كان يمكن أن تقع ولم تقع، والتي قد تقع ولن تقع. إن عدم اليقين الكبير هذا يسمح هنا بيقين محتم.

إنني لست الوحيد الذي يدهش لمثل هذا التناقض الشديد الغرابة. إن الدولة نفسها تدينه، وتبكيت الضمير هذا يفسر بدوره تناقض موقفها. إنها تحول دون أي إعلان عن عمليات التنفيذ، لأنها لا تستطيع أن تتملص من الخيار الثنائي الحد الذي وضعها فيه بيكاريا [١] حين كتب: "إذا كان من المهم أن يطلع الشعب غالباً على الأدلة التي تثبت قوة السلطة، فإن العذابات في مثل هذه الحال يجب أن تكون كثيرة. لكن ينبغي لذلك أن تكون الجرائم أيضاً كثيرة، مما يثبت أن عقوبة الموت

---

١ . سيزار بيكاريا : فيلسوف وجناني إيطالي ، كان له أثر في تخفيف صرامة قانون العقوبات (١٧٣٨-١٧٩٤) . المترجم



لا تحـدث الأثر الذي يجب أن تحـدثه، ومـن هذا تبين لنا أنهـا لامـجـدية وضرورية في آن واحد". وماذا تستطيع الدولة أن تفعل بعقوبة لامجدية وضرورية سوى أن تخفيها دون أن تلغيها؟ سوف تحتفظ بها إذن، على انزواء بعض الشيء، لا بدون حرج، مع أمل أعمى بأن يرتدع إنسان ما على الأقل، في يوم ما على الأقل، إذ يتفكر بالقصاص وهو يقدم على جريمته، فيبرر، دون أن يعرف ذلك أي إنسان، قانوناً لم يعد العقل والتجربة بجانبه. إذن فالدولة مضطرة، لأنها تعاند في الزعم بأن المقصلة ذات عبرة، إلى مضاعفة الجرائم الواقعية لتتجنب جريمة مجهولة لا تعرف ولن تعرف أبداً إن كان لها من إمكانية واحدة لتقترف. إنه، في الحقيقة، لقانون غريب يعرف الجريمة التي يسببها ويجهل دوماً الجريمة التي يمنعها.

ما يتبقى إذن من قدرة العبرة هذه، إذا كان من المؤكد أن العقوبة القصوى لها قدرة أخرى، قدرة واقعية حقاً، تذلّ الإنسان إلى حد العار، والجنون، والقتل؟

نستطيع من الآن أن نتحقق مما لهذه الطقوس من نتائج "رادعة" على الرأي العام، ومن مظاهر السادية التي توقظها فيه، ومن المجد الفظيع الباطل الذي تبعثه لدى بعض المجرمين. ليس ثمة من نبل حول المقصلة، بل تقزز واحتقار، وأخس المتع. وهذه النتائج معروفة. ولقد اقتضت الحشمة هي الأخرى أن تنتقل المقصلة من ساحة دار الحكومة إلى الضواحي، ثم إلى السجون. ومعلوماتنا أقل عن مشاعر الذين توجب عليهم مهنتهم حضور هذا النوع من المسرحيات. فلنستمع إذن إلى مدير سجن انكليزي يعترف "بشعور حاد من الخجل الشخصي"، وإلى كاهن



السجن الذي يتكلم عن "الفظاعة، والعار، والمذلة" [١]. ولنتصور بخاصة ماذا تكون مشاعر الرجل الذي يقتل بحكم وظيفته، أعني الجلاد. وماذا نقول عن أولئك الموظفين الذين يسمون المقصلة "القاطرة"، والمحكوم عليه "الزبون" أو "الطرد"! ماذا نقول عنهم إن لم نقل ما قال الكاهن بيلا جوست الذي شهد حوالي ثلاثين إعداما وكتب: "إن لغة المكلفين بتنفيذ الإعدام لا تكاد تدانيها جنوناً وسوقية إلا لغة الجانحين" [٢]. وفي النهاية، إليكم ما كتبه مساعد جلاد عن جولاته في الأرياف: "حين كنا نقوم بسفرة كنا نقضي أيامنا في الضحك! لنا السيارات ولنا المطاعم الممتازة!". ويضيف هذا نفسه، متحدثاً عن مهارة الجلاد في إسقاط الساطور: "كنا نستطيع أن نسمح لأنفسنا بترف التمتع بشد الزبون من شعره". إن هذا الشذوذ الذي يعبر عن نفسه هنا له مظاهر أخرى أكثر عمقاً أيضاً. فملابس المحكوم عليهم تخص مبدئياً الجلاد. فكان ديبلر الأب يعلقها كلها في كوخ مبني من ألواح خشبية، ويذهب للنظر إليها بين الحين والحين. وهناك ما هو أخطر من ذلك. إليكم ما يدلي به مساعد الجلاد صاحبنا: "إن المنفذ الجديد مأفون بالمقصلة. إنه يلبث أحياناً أياماً كاملة في بيته، جالساً على كرسي، جاهزاً مستعداً، وقبعته على رأسه، مرتدياً معطفه، ينتظر دعوة من الوزارة" [٣].

أجل، هذا هو الإنسان الذي كان جوزيف دي ميستر يقول عنه إنه، كي يوجد، كان ينبغي مرسوم خاص من القوة الإلهية، وأنه بدونه "تحل الفوضى محل النظام"، وتتخلع العروش، ويضمحل المجتمع". هذا هو

---

١ . تقرير "اللجنة المختارة" ١٩٣٠ .

٢ . بيلا جوست : "المشنقة والصليب" ، نشر فاسكيل .

٣ . روجيه غرونيه : "الوحوش" ، نشر غاليمار .



الإنسان الذي يتخلص المجتمع بوساطته كلياً من الذنب، ما دام الجلاد يوقع على استمارة إخلاء السبيل، ويتسلم رجلاً حراً يوضع تحت تصرفه المطلق. إن المثال الجميل والجليل الذي اخترعه مشرّعونا له، على الأقل، تأثير أكيد وهو إذلاله أو تدميره الصفة الإنسانية والعقل لدى من يسهمون في العملية مباشرة. قد يقال إنهم مخلوقات استثنائية تجد في هذا الانحطاط تحقيقاً لمنازعها. ولكن كم سينخفض عدد الذين يقولون هذا الكلام حين يعلمون أن هناك مئات الأشخاص ممن يعرضون أنفسهم ليكونوا منفذين مجانياً. إن رجال جيلنا، الذين عاشوا تاريخ السنوات الأخيرة هذه، لن يدهشوا لهذا النبأ. إنهم يعلمون أن غريزة التعذيب والقتل تقبع خلف الوجوه الأكثر دعة والأكثر ألفة. إن العقاب الذي يزعم أنه يردع قاتلاً مجهولاً يوفر بالتأكيد سبل التنفيس عن منازع القتل لدى وحوش أخرى أكيدة. وما دمنا قد توصلنا إلى تبرير أقسى قوانيننا باعتبارات محتملة، أفليس لنا أن نشك في أن واحداً على الأقل من مئات الأشخاص الذين رفضنا خدماتهم قد أشبع بطريقة أخرى الغرائز الدموية التي أيقظتها فيه المقصلة.

إذا كان المجتمع يريد إذاً الإبقاء على عقوبة الموت، فلنُجنِّب على الأقل رياء التبرير بالعبرة. لنسمِّها باسمها هذه العقوبة التي نرفض كل إعلان عنها، هذه القدرة الرادعة التي لا تؤثر على الناس الشرفاء، ما داموا شرفاء، والتي تسحر من لم يعد شريفاً، والتي تحط أو تسبب الاختلال لمن يساعد في تنفيذها. إنها، يقيناً، عقوبة، عذاب رهيب مادي ومعنوي، لكن ليس فيها أية عبرة أكيدة، هذا إن لم نقل إنها



مهدمة للأخلاق. إنها تعاقب، لكنها لا تقي من شيء، هذا حين لا تثير غريزة القتل. إنها وكأنها غير موجودة إلا بالنسبة لمن يكابد منها، روحياً طوال شهور أو سنين، وجسمياً خلال الساعة اليائسة العنيفة التي يقطع فيها إلى قسمين، دون قبض روحه. لنسمِّها باسمها الذي سيعيد إليها، نظراً لخلوها من كل نبل، نبل الحقيقة، ولنتعرفها كما هي عليه فعلاً: انتقاماً.

إن القصاص الذي يعاقب دون أن يقي يسمى، بالفعل، انتقاماً. إنه جواب شبه حسابي يردُّ به المجتمع على من ينكث بشريعته الأولى. وهذا الجواب قديم قدم الإنسان: إنه قانون الثأر. مَن أساء إليَّ يجب أن يناله سوء، ومن فقأ عيني يجب أن يصبح أعور، ومن قتل ينبغي أن يموت. فالقضية قضية عاطفة، عاطفة عنيفة جداً، لا قضية مبدأ. إن الثأر يمتُّ بنوعيته إلى الطبيعة والغريزة، ولكنه لا يمتُّ إلى الشريعة. إن الشريعة، من حيث تعريفها، لايمكن أن تخضع لقواعد الطبيعة نفسها. وإذا كان القتل من طبيعة الإنسان، فإن القانون لم يُسن لتقليد هذه الطبيعة أو لنسخها. لقد سُن لإصلاحها. والحال، أن الثأر يقتصر على المصادقة على حركة طبيعية خالصة ويمنحها قوة القانون. لقد عرفنا جميعاً هذه الحركة، وشعرنا بالخجل غالباً، ونحن نعرف قوتها: إنها تأتينا من الغابات العذراء. وبهذا المعنى، نعيش نحن الفرنسيين الذين يستنكرون، عن حق، رؤية ملك البترول، في العربية السعودية، يعظ بالديموقراطية الدولية ويعهد إلى جزار بمهمة قطع يد سارق، نعيش أيضاً في نوع من عصر وسيط لا يملك حتى عزاء الإيمان. إننا لا نزال نعرِّف العدالة حسب قواعد



حساب بدائي [1]. فهل نستطيع القول، على الأقل، إن هذا الحساب دقيق، وإن العدالة، وإن كانت أولية، وإن كانت مقتصرة على الانتقام الشرعي، قد وجدت الحماية في عقوبة الموت؟ ينبغي أن نجيب: كلا.

لنترك جانباً حقيقة أن قانون الثأر لا يمكن تطبيقه، وأنه سيبدو لنا أن معاقبة الحارق بإشعال النار في بيته لهي عقوبة مبالغ فيها، كما أن مقاصصة السارق بحسم مبلغ يعادل ما سرقه من حسابه في المصرف ستبدو لنا عقوبة ناقصة. ولنقبل بأن من العدل والضروري التعويض عن قتل الضحية بموت القاتل. لكن تنفيذ حكم الإعدام لا يعني الموت فقط. إنه يختلف، من حيث جوهره، عن الحرمان من الحياة، اختلاف معسكر الاعتقال عن السجن. إنه جريمة قتل، بلا ريب، تعوض حسابياً عن الجريمة المقترفة. لكنه يضيف إلى الموت أصولاً متبعة، وتصميماً عاماً على القتل تعرفه الضحية القادمة، ويضيف إليه أخيراً تنظيماً هو في حد ذاته مصدر لآلام معنوية أفظع من الموت. ليس هناك إذن تعادل. إن الكثير من الشرائع تعتبر القتل عن سابق عمد أخطر من القتل في ساعة عنف مفاجئ. والحقيقة أن الإعدام يتوفر فيه سبق العمد أكثر من أي جريمة أخرى، ولا يمكن أن يقارن به أي جرم ارتكبه مجرم، مهما كان محسوباً. لقد كان ينبغي، كي يوجد التعادل، أن تعاقب عقوبة الموت

---

١ . طلبت ، منذ بضعة أعوام ، العفو عن ستة تونسيين محكومين بالموت ، لقتلهم ثلاثة من الدرك الفرنسيين في مظاهرة . كانت الظروف التي حدث فيها هذا القتل تجعل من الصعب تقاسم المسؤوليات . وجاءتني مذكرة من رئاسة الجمهورية تعلمني أن عريضتي استرعت اهتمام الهيئة المختصة . ولسوء الحظ ، حين وُجهت هذه المذكرة إليّ ، كنت قد قرأت منذ أسبوعين أن الحكم قد نفذ . فأعدم ثلاثة ،وصدر العفو عن الثلاثة الباقين . ولم تكن أسباب العفو عن البعض دون البعض الآخر جازمة . لكن كان ينبغي ، بلا شك ، إعدام ثلاثة ما دامت هناك ضحايا ثلاث .



مجرماً ينذر ضحيته بالساعة التي سيقتله فيها قتلاً رهيباً، ويحبسه، من لحظة الإنذار هذه، تحت رحمته طوال شهور. إن مثل هذا الوحش لا وجود له في الحياة العادية.

هنا أيضاً، حين يتكلم حقوقيونا الرسميون عن الإماتة دون إيلام، فإنهم لا يعرفون عما يتكلمون. وهم، على الأخص، يفتقرون إلى الخيال. إن الخوف المهدم، المذلّ، الذي يُفرض طوال شهور وسنين [1] على المحكوم عليه، لهو عقوبة أرهب من الموت، ولم تفرض على الضحية. إن الضحية تدخل عالم الموت بسرعة دون أن تعرف ما يحدث لها، في معظم الحالات، مهما كان ذعرها من العنف المميت الذي تُعامل به. إن لحظة الرعب هذه محسوبة من لحظات الحياة، والضحية لا تفقد البتة، على الأرجح، الأمل في النجاة من الجنون الذي ينهار عليها. أما المحكوم عليه فإنه على العكس يعيش الخوف من الموت بكل تفاصيله. إن التعذيب بالأمل يتناوب مع أهوال اليأس الحيواني. إن المحامي والكاهن، بدافع إنساني محض، والحراس، كي يظل المحكوم عليه هادئاً، يجمعون على التأكيد له بأنه سيُعفى عنه. وهو يصدق ذلك بكل كيانه في البداية، ثم لا يعود يصدقه. إنه يأمل نهاراً، وييأس ليلاً [2]. وكلما مرت الأسابيع، تعاظم الأمل واليأس وصارا لا يُحتملان كلاهما.

---

١ . بقي رومن ، الذي حُكم عليه بالإعدام بعد التحرير ، سبعمائة يوم في السلاسل قبل أن ينفذ الحكم فيه ، وهذا شيء فاضح . إن مجرمي الحق العام المحكومين بالإعدام ينتظرون عادة من ثلاثة أشهر إلى ستة أشهر صبيحة موتهم . ومن الصعب تقصير المدة ، إذا كانت هناك رغبة في الإبقاء على فرص نجاتهم . وأستطيع أن أشهد ، على كل حال ، أن دراسة طلبات العفو تتم في فرنسا بجدية لا تستبعد الرغبة الظاهرة في العفو ، بمقدار ما يسمح القانون والأعراف .

٢ . لما كان الإعدام لا ينفذ عادة أيام الآحاد ، فإن ليلة السبت هي خير الليالي دوماً في زنزانات المحكومين بالإعدام .



واستناداً إلى كل شهادات الشهود ، فإن لون الجلد يتغير ، ويكون للخوف تأثير يشبه تأثير الحمض. يقول أحد المحكوم عليهم في سجن فرين: "أن تعرف أنك ستموت، فهذا لاشيء. لكن ألا تعرف ما إذا كنت ستعيش، فهذا هو الهول والقلق". وكان كارتوش [1] يقول عن العذاب الأكبر: "واه! إنه ليس أكثر من ربع ساعة عصيبة يجب قضاؤها". لكن القضية قضية أشهر، لا دقائق. إن المحكوم عليه يعرف مسبقاً بمدة طويلة أنه سيُقتل، وأن عفواً أشبه بمراسيم السماء يستطيع وحده أن ينقذه. إنه لا يستطيع على كل حال، أن يتدخل، أن يرافع بنفسه، أو أن يقنع أحداً. كل شيء يتم خارجاً عنه. إنه لم يعد إنساناً، بل شيئاً ينتظر أن يعالجه الجلادون. إنه محكوم عليه بالضرورة المطلقة، ضرورة المادة الجامدة، لكن مع وعي هو عدوه الرئيسي.

حين يطلق الموظفون على هذا الشخص، الذي توجب عليهم مهنتهم قتله، اسم "الطرد"، فإنهم يعرفون ما يقولون. فأن لا تستطيع شيئاً ضد اليد التي تحملك، تحتفظ بك أو ترميك، أفلا يعني هذا أنك بالفعل أشبه برزمة أو شيء، أو حيوان مقيد على أحسن الأحوال؟ بل إن الحيوان يستطيع أن يرفض الطعام. والمحكوم عليه لا يستطيع أن يرفض ذلك، فهم يفرضون عليه التمتع بنظام غذائي خاص (في سجن فرين، النظام رقم ٤، مع إضافي من اللبن والخمر والسكر والمربى والزبدة)، ويسهرون على تغذيته. وإذا كان هناك داعٍ، فإنهم يرغمونه على ذلك. إن الحيوان الذي سيقتلونه يجب أن يكون في عنفوان صحته. فالبهيمة أو الشيء

---

١ . كارتوش : رئيس عصابة مشهور قُتل تعذيباً بالدولاب ، وكانت جرأته أسطورية (١٦٩٣-١٧٢١) . (المترجم)



لهما وحدهما الحق في تلك الحريات المنحطة التي تسمى بالنزوات. يصرح أحد رؤساء الحرس في سجن فرين بدون سخرية، متحدثاً عن المحكوم عليهم بالموت: "إنهم سريعو التأثر للغاية". وهذا لا شك فيه، وإلا فكيف يسترجعون الحرية وتلك الكرامة التي يشعر بها الإنسان حين يريد شيئاً والتي لا يستطيع أن يستغني عنها؟ إن المحكوم عليه، سواء أكان سريع التأثر أم لم يكن، يدخل، منذ اللحظة التي يلفظ فيها الحكم، في آلة محكمة لا يدخل عليها تغيير. إنه يمضي عدداً معيناً من الأسابيع في شكليات تفرض عليه كل حركاته، وتسلمه في النهاية إلى الأيدي التي ستمدُّه على آلة القتل. إن "الطرد" لا يعود لعبة في يد الصدفة التي تسيطر على الكائن الإنساني، بل يخضع لقوانين ميكانيكية تسمح له بأن يتوقع دونما خطأ يوم قطع رأسه.

إن هذا اليوم يضع حداً لوضعه كشيء. إن يقينه بموت عاجز، خلال ثلاثة أرباع الساعة التي تفصله عن الإعدام، يسحق كل شيء. إن البهيمة المربوطة الخانعة تعيش جحيماً يبدو معه الجحيم الذي يُهدَّد به زهيد الشأن. لقد كان اليونانيون، بعد كل شيء، أكثر انسانية مع سمهم. فقد كانوا يتركون للمحكوم عليهم حرية نسبية، إمكانية تأخير أو تعجيل ساعة موتهم. كانوا يخيِّرونهم بين الانتحار والإعدام. أما نحن، ورغبة منا في المزيد من الأمان، فإننا ننفذ العدالة بأنفسنا. لكن لايمكن أن توجد عدالة حقاً، إلا إذا أبلغ المحكوم عليه الضحية قراره قبل أشهر مقدماً، ودخل إلى بيتها، وأوثقها وثاقاً متيناً، وأعلمها أنه سيجهز عليها خلال ساعة، وأمضى أخيراً هذه الساعة في إعداد جهاز الموت. فهل نعرف من مجرم حكم على ضحيته بمثل هذا الوضع اليائس والعاجز إلى هذا الحد؟



هذا يفسر بلا ريب ذلك الخنوع الغريب الذي يبديه المحكومون ساعة إعدامهم. ولعلهم كانوا يفضلون، بعد أن فقدوا أي أمل، أن يغامروا ويلقوا الموت برصاصة طائشة، أو أن يعدموا بالمقصلة بعد قتال مرير مأفون ينهك قواهم ويستنفدها. وبذلك يكونون قد ماتوا، بمعنى ما، بحرية. ومع ذلك، وباستثناء بعض الحالات النادرة، فإن القاعدة المتبعة أن يسير المحكوم عليه إلى الموت بدون مقاومة، في نوع من الإرهاق اليائس. وهذا بلا ريب ما يقصده صحفيونا حين يكتبون أن المحكوم عليه مات بشجاعة. وينبغي أن نفهم من هذا أن المحكوم عليه لم يحدث ضجة، ولم يخرج عن كونه طرداً، وأن الجميع معترفون له بالجميل. ويظهر المحكوم عليه حشمة يُشكر عليها، في هذه العملية التحقيرية، بسماحه بألا يدوم التحقير طويلاً. لكن التقاريظ وشهادات الشجاعة تشكل جزءاً من الشعوذة العامة التي تحيط بعقوبة الموت. ذلك أن المحكوم عليه يكون أكثر حشمة كلما كان أكثر خوفاً. وهو لن يستحق مديح صحافتنا إلا إذا كان خوفه أو شعوره بالهجران كبيرين بما فيه الكفاية لتعقيمه تماماً. وأرجو أن أُفهم جيداً: إن بعض المحكوم عليهم، سواء أكانوا سياسيين أم لم يكونوا، يموتون ببطولة، ويجب أن نتكلم عنهم بالإعجاب والاحترام الواجبين. لكن معظمهم لا يعرف من صمت إلا صمت الخوف، ومن بلادة إلا بلادة الذعر. ويخيّل إليّ أن هذا الصمت المذعور يستحق أيضاً احتراماً أكبر. فحين يعرض الكاهن بيلا جوست على شاب محكوم عليه أن يكتب إلى ذويه، قبل لحظات من شنقه، ويأتيه الجواب: "لا أملك الشجاعة، حتى لهذا"، فكيف لن ينحني هذا الكاهن، عند سماعه هذا الاعتراف بالضعف، أمام أعظم ما في الإنسان



من بؤس وقداسة؟ إن الذين لا يتكلمون، والذين نعرف حقيقة شعورهم من بقعة الماء الصغيرة التي يتركونها في المكان الذي انتُزعوا منه، مَن يجرؤ على القول إنهم ماتوا بجبن؟ وكيف ينبغي في هذه الحال أن نصف أولئك الذين حكموا عليهم بمثل هذا الجبن؟ وبعد كل شيء، إن كل قاتل يجازف، حين يقتل، بأفظع الميتات، في حين أن الذين يقتلونه لا يجازفون بشيء، اللهم إلا الترقية.

كلا، إن ما يشعر به الإنسان في تلك اللحظة يتجاوز كل أخلاق. فلا للفضيلة، ولا للشجاعة، ولا للذكاء، ولا حتى للبراءة، من دور تلعبه هنا. فالمجتمع يعود، دفعة واحدة، إلى الأهوال البدائية التي لا يمكن فيها الحكم على أي شيء. ويختفي كل عدل، كما تختفي كل كرامة. "إن الشعور بالبراءة لا يوجد مناعة ضد المعاملة القاسية... لقد رأيت لصوصاً حقيقيين يموتون بشجاعة، بينما كان أبرياء يذهبون إلى الموت وهم يرتعدون بكل أعضائهم" (بيلا جوست ـ المصدر نفسه). وحين يضيف الكاهن نفسه أن تجربته تدله على أن الخور يصيب المثقفين أكثر من غيرهم، فهو لا يعني أن هذه الفئة من البشر تقلّ شجاعة عن غيرها، إنما هي أكثر خيالاً. إن الإنسان، حين تفرض عليه مواجهة الموت المحتم، تنهار روحه رأساً على عقب، مهما كانت قناعاته[1].

إن شعور المحكوم، الموثق الرباط، بالعجز والعزلة تجاه التحالف العام الذي يريد موته، هو في حد ذاته عقاب يفوق الخيال. ومن هذا المنظور أيضاً، من الأفضل أن ينفذ الإعدام علناً. إن الممثل الكامن في

---

١ . أطلعني جراح كبير ، هو نفسه كاثوليكي ، أنه بعد التجربة ، ما عاد يصارح حتى المؤمنين حين يصابون بسرطان لا علاج له . وهو يرى أن الصدمة تهدد بأن تهدد حتى إيمانهم .



جلد كل إنسان، يستطيع عند ذاك أن يتدخل لنجدة الحيوان المذعور ويساعده على الظهور بمظهر الشجاع، حتى أمام نفسه. لكن الليل والتكتم لا يسمحان بأي نجدة. إن الشجاعة وقوة الروح وحتى الإيمان مهدّدة بأن تكون، في مثل هذه الكارثة، مجرد احتمالات. إن انتظار العقوبة القصوى يهدم الإنسان، بشكل عام، قبل أن يموت بفترة طويلة. وهكذا تفرض عليه ميتتان، أولاهما أدهى من الثانية، مع أنه لم يقتل إلا مرة واحدة. وإذا ما قارنّا عقوبة الثأر بهذا العذاب، فإنها ستبدو شريعة من شرائع المدنية. إذ أنها لم تزعم قط أنه ينبغي فقء العينين الاثنتين لمن عور أخاه.

على كلٍّ، إن هذا الظلم الأساسي ينعكس أثره على أهل المعدوم. إن للضحية أقارب تكون آلامهم عادة لامتناهية، ويرغبون، في معظم الحالات، في الانتقام. وينتقمون. لكن أقارب المحكوم عليه يكابدون من تعاسة قصوى توقع بهم من القصاص ما يتعدى كل عدالة. إن انتظار أُم أو أب طيلة شهور طوال، وحجرة المقابلات داخل السجن، والأحاديث المفتعلة التي تملأ بها اللحظات القصيرة المقتضبة مع المحكوم عليه، وأخيراً صور تنفيذ الإعدام، لهي عذابات لم تفرض على أقارب الضحية. فمهما كانت مشاعر هؤلاء الأخيرين، فإنهم لا يستطيعون أن يرغبوا في أن يكون الانتقام أعظم بكثير من الجريمة، وفي أن تُسام بالعذاب كائنات تشاطرهم، بقوة، آلامهم الخاصة. كتب محكوم بالموت: "لقد عُفي عني يا أبتِ، ولم أستطع أن أدرك بعد كل السعادة التي سقطت عليّ. لقد وقع الأمر بالعفو عني في ٣٠ نيسان، وبُلّغته يوم الأربعاء وأنا عائد من حجرة المقابلات. وسرعان ما أخطرت بابا وماما



اللذين ما كانا قد غادرا بعد السجن. فتصوَّر من هنا سعادتهما" [1]. إننا لنتصورُها بالفعل، لكن بمقدار ما يمكننا أن نتصوَّر تعاستهما المستمرة حتى لحظة العفو، وبمقدار ما يمكننا تصوُّر اليأس الماحق للذين يتلقون النبأ الآخر، النبأ الذي يعاقب، بجوره، براءتهم وتعاستهم.

كي ننتهي أخيراً من شريعة الثأر هذه، ينبغي أن نلاحظ أنه لايمكن العمل بها، بشكلها البدائي، إلا بين فردين، أحدهما بريء تماماً والآخر مذنب تماماً. يقيناً، إن الضحية بريئة. لكن هل يستطيع المجتمع المفروض فيه أنه يمثلها أن يدَّعي البراءة؟ أليس مسؤولاً، جزئياً على الأقل، عن الجريمة التي يقمعها بمثل هذه القسوة؟ لقد تكلم كثيرون في هذا الموضوع، ولن أعود إلى الحجج التي عرضها شتى المفكرون منذ القرن الثامن عشر. ويمكننا تلخيصها، أصلاً، بالقول إن لكل مجتمع المجرمين الذين يستحقهم. لكن إذا ما تكلمنا عن فرنسا، فمن المستحيل ألا نشير إلى الظروف التي توجب على مشرِّعينا أن يكونوا أكثر تواضعاً. لقد أكد ضابط برتبة عقيد، في إجابته عن تحقيق قامت به "الفيغارو" عن عقوبة الموت عام ١٩٥٢، بأن فرض الأشغال الشاقة المؤبَّدة كعقوبة قصوى يعادل تأسيس معاهد للجريمة. ويبدو أن هذا الضابط يجهل، هنيئاً له، أن لدينا من الآن معاهد للجريمة لا تختلف عن سجوننا إلا بأن الخروج منها ممكن في كل ساعة من ساعات النهار والليل: أعني الحانات، والأكواخ العفنة، مجد جمهوريتنا. ومن المستحيل أن نتكلم باعتدال عن هذه النقطة.

---

١ . عن الأب المحترم ديفويود ، مصدر آنف الذكر . وبالمناسبة ، يستحيل أيضاً أن نقرأ ، دون أن نتأثر ، عرائض طلب العفو التي يقدمها أب أو أم لا يفهمان ، على ما يبدو ، القصاص الذي نزل عليهما فجأة .



إن الإحصاء يقدّر عدد المساكن المزدحمة بالسكان بـ (٦٤,٠٠٠) في مدينة باريس وحدها (بمعدل ٣إلى ٥ أشخاص في الغرفة الواحدة). يقيناً، إن جلاد الأطفال مخلوق سافل للغاية ولا يثير الشفقة. ومن المحتمل أيضاً (أقول من المحتمل) ألا يتطرف أحد قرائي، ممن يعيشون في ظروف من الالتصاق البشري مماثلة، إلى حد قتل الأطفال. إذاً فلا مجال لتخفيف جرم بعض الوحوش. لكن هذه الوحوش قد لا تجد الفرصة للتطرف إلى هذا الحد، لو كانت تعيش في مساكن لائقة. وأقل ما يمكننا قوله إنها ليست المذنبة الوحيدة، ويبدو صعباً أن يكون حق معاقبتهم موضوعاً في أيادي من يمولّون زراعة الشمندر أكثر مما يمولون مشاريع البناء [١].

لكن الكحول يزيد في حدة هذه الفضيحة أيضاً. فالمعروف أن الأمة الفرنسية مسمَّمة تسميماً منظماً من قبل أغلبيتها البرلمانية، لأسباب سافلة بشكل عام. والحال أن نسبة مسؤولية الكحول في تكوين جرائم الدم مرعبة حقاً. فقد قدَّرها أحد المحامين (السيد غيون) بـ ٦٠٪، ويرى الدكتور (لاغريف) أن هذه النسبة تتراوح بين ٤١,٧٪ و ٧٢٪. ولقد دلَّ تحقيق أُجري عام ١٩٥١، في مركز الفرز بسجن فرين، لدى المحكوم عليهم باسم الحق العام، أن بينهم ٢٩٪ من المدمنين المزمنين و٢٤٪ منهم من أهل مدمنين. وأخيراً فان ٩٥٪ من قتلة الأطفال مدمنون.

إن هذه لأرقام جميلة. ونستطيع أن نضع تحت الأنظار رقماً أروع أيضاً: ألا وهو تصريح مصنع للمشروبات الروحية أمام لجنة الضرائب،

---

١ . تأتي فرنسا في المرتبة الأولى بين البلدان المستهلكة للكحول ، وفي المرتبة الخامسة عشرة بين البلدان البناءة .



عـام ١٩٥٣، بأن أرباحـه بلغت ٤١٠ مليـوناً. إن مـقـارنة هذه الأرقـام تسـمح لنا بإبلاغ المسـاهمين في هذا المصنع ونواب الكحـول بأنهم قـتلوا عـدداً من الأطفال أكـبر مما يظنون. وأنا بالطبع، لكوني خصـماً للعقـوبة القـصوى، بعيـد عن المطالبة بالحكم عليهم بالموت. لكن يبدو لي أن من الواجب والملح، كبداية، أن يقادوا، تحت حراسة عسكرية، إلى أول إعدام قـادم لقاتل أطفال، وأن يسلموا، عند خروجهم، تذكرة إحصائية تتضـمن الأرقام التي تكلمت عنها.

أمـا الدولة التي تزرع الكحـول، فـلا يمكنهـا أن تدهش إذا جنت الجـريمة[1]. وهي لا تدهش، على كل حال، وتكتـفي بقطع الرؤوس التي صبَّت فيـها بنفسـها الكثيـر من الكحول. إنهـا تطبق العدالة دون هوادة، وتمنح نفسـها حقوق الدائن. لذا فـإن ضميرها لا تشـوبه شائبة، مثلهـا مثل ذلك المـمثل لمصنع كحـولي حين أجاب على تحقـيق "الفـيـغـارو" صائحاً: "أعرف ما سيفعله أكثر الناس حماسة لإلغاء عقوبة الإعدام، إذا ما وجد نفسـه على حين غرَّة، وبمتناوله سلاح، أمام قـتلة يهمُّون بقـتل أبيه، أو أمه، أو أطفاله، أو أفضـل أصدقائه. فهل من عجب إذن!". إن "إذن" هذه تبدو هي نفسـها مسمَّمة بالكحول. بالطبع، إن أكثر الناس حماسة لإلغاء عـقـوبة الإعـدام لن يتـردد في إطلاق النـار على أولئك القـتلة، وسـيكون محقاً في ذلك، ودون أن يجعله ذلك يتخلى عن أي سبب من أسبابه في الدفـاع بشـراسة عن إلغـاء عـقـوبة الإعدام. ولو كـان، عـلاوة على ذلك،

---

١ . أثار أنصار عقوبة الموت ضجة كبيرة في أواخر القرن الماضي حول زيادة الإجرام، بدءاً من عام ١٨٨٠، وجاءت هذه الزيادة موازية لتناقص في تطبيق أحكام الإعدام. لكن، في عام ١٨٨٠، صدر القانون الذي يسمح بفتح محلات لبيع المشروبات دون رخصة مسبقة. فلنحاول، إذن، تفسير الإحصائيات!



متماسك الأفكار، ولو كان القتلة المذكورون تفوح منهم رائحة الكحول بقوة، لذهب بعد ذلك ليهتم بالذين لا مهمة لهم سوى تسميم مجرمي المستقبل. بل من المدهش كل الدهشة ألا يكون أقارب ضحايا جرائم الكحول قد خطرت لهم فكرة الذهاب للمطالبة ببعض الإيضاحات تحت قبة البرلمان. ومع ذلك فإن العكس هو مايحدث. والدولة المتمتعة بالثقة العامة، والمدعومة بالرأي العام، تتابع تأديب القتلة، حتى - وبخاصة - الكحوليين، كما يحدث أن يؤدب القواد المخلوقات النشيطة التي تؤمِّن معاشه. لكن القواد لا يشرع أخلاقاً، أما الدولة فتشرع. إن اجتهاد محاكمها، إذا قبل بأن حالة السكر تشكل أحياناً ظرفاً مخففاً، يتجاهل حالة الإدمان المزمنة. بيد أن حالة السكر لا ترافق إلا جرائم العنف، التي لا تعاقب بالموت، في حين أن المدمن المزمن قادر على ارتكاب جرائم عن سبق تعمُّد، يستحق عليها الموت. إذن فالدولة تحتفظ لنفسها بحق المعاقبة في حالة واحدة فقط هي الحالة التي لا يكون فيها أمامها مهرب من تحمل مسؤوليتها.

هل هذا يعني أن كل مدمن يجب أن يعتبر غير مسؤول من قبل دولة ستظل تقرع صدرها إلى أن تكفّ الأمة عن شرب الكحول وتستغني عنه بعصير الفواكه؟ يقيناً لا. تماماً كما أن الأسباب التي تنسب إلى الوراثة يجب ألا تطفئ كل ذنب. إن المسؤولية الحقيقية لجانح ما لايمكن أن تقدّر بدقة، ونحن نعرف أن الحساب عاجز عن بيان عدد أسلافنا، المدمنين أم غير المدمنين. وفي نهاية الزمن، سيصبح ١٠ ٢٢ (١٠ قوة ٢٢) أكبر من عدد سكان الأرض الحاليين. إن عدد الاستعدادات الرديئة أو القاتلة التي أورثونا إياها لايمكن حسابها إذاً.



إننا نجيء إلى العالم رازحين تحت ثقل حتمية لامتناهية. وكان ينبغي أن نستنتج على هذا الأساس وجود لامسؤولية عامة. ويقضي المنطق أيضاً عندئذ ألا يطبق عقاب أو ثواب,وبالتالي يصبح كل مجتمع مستحيلاً. لكن غريزة الحفاظ على المجتمعات، وبالتالي على الأفراد ، تقتضي على العكس أن تكون المسؤولية الفردية مسلماً بها وينبغي القبول بها ، دونما حلم بتسامح مطلق لو وُجد لمات كل مجتمع. لكن هذه الفكرة نفسها تقودنا إلى الاستنتاج بأنه لا وجود البتة لمسؤولية كلية، ولا وجود بالتالي لعقاب أو ثواب مطلقين. ولا يمكن لإنسان أن يكافأ مدى الحياة، حتى ولا الفائزين بجوائز نوبل. لكن ما من إنسان يجب أن يعاقب بشكل مطلق، ولو اعتبر مذنباً، وبخاصة إذا كان هناك احتمال بأن يكون بريئاً. إن عقوبة الموت، التي لا تحقق لا مقتضيات العبرة ولا مقتضيات العدالة الحقة، تغتصب، علاوة على ذلك، امتيازاً فاحشاً، بادعائها أنها تعاقب ذنباً نسبياً بقصاص نهائي لا رجوع فيه.

إذا كانت العقوبة القصوى، بالفعل، مريبة العبرة، وعرجاء العدالة، فينبغي أن نوافق، مع المدافعين عنها ، على أنها ماحية للوجود . إن عقوبة الموت تمحو نهائياً وجود المحكوم عليه. وهذا وحده، في الحقيقة، كان ينبغي أن يغني، بالنسبة لأنصارها على الأخص، عن ترديد الحجج الواهية التي يمكن أن تدحض باستمرار كما رأينا . ومن الأصح أن نقول إنها نهائية لأنها ينبغي أن تكون كذلك، وأن نؤكد أن بعض البشر لايمكن إعادتهم إلى حظيرة المجتمع، وأنهم يشكلون خطراً مستمراً على كل مواطن وعلى النظام الاجتماعي، وأنه ينبغي بالتالي، وحتماً، القضاء عليهم. وبالطبع، لا يستطيع أحد أن ينكر وجود بعض الوحوش



الاجتماعية الضارية، التي لا يمكن لشيء أن يحطم قوتها ووحشيتها. ولا شك أن عقوبة الموت لا تحل المشكلة التي تطرحها هذه الوحوش. لكن فلنسلم على الأقل بأنها تحذفها.

سوف أعود إلى هؤلاء البشر. لكن ألا تطبق العقوبة القصوى إلا عليهم؟ هل يستطيعون أن يؤكدوا لنا أن كل المعدومين كان يستحيل إعادتهم إلى حظيرة المجتمع؟ بل هل يستطيعون أن يقسموا أن ليس بينهم بريء؟ وفي كلتا الحالتين، ألا ينبغي عليهم أن يعترفوا بأن العقوبة القصوى ليست ماحية للوجود إلا بمقدار ما لا يمكن الرجوع عنها؟ بالأمس، في ١٥ آذار ١٩٥٧، نُفِّذ الإعدام في كاليفورنيا ببارتون آبوت، المحكوم عليه بالموت لقتله بنية في الرابعة عشرة. هي ذي، على ما أعتقد، جريمة من الجرائم الممقوتة التي تصنّف مقترفها بين مَن لايمكن إصلاحهم. ورغم أن آبوت أكد دوماً براءته، إلا أن الحكم صدر عليه. وقد حُدد موعد التنفيذ في ١٥ آذار، الساعة العاشرة. وفي الساعة التاسعة وعشر دقائق، صدر أمر بوقف التنفيذ للسماح للمحامين بتقديم طلب عفو أخير [1]. وفي الحادية عشرة، رُفض الطلب. وفي الساعة ١١ و ١٥ دقيقة، كان آبوت يدخل غرفة الغاز. وفي الساعة ١١ و ١٨، كان يتنشق أولى نفحات الغاز. وفي الساعة ١١ و ٣٠، كان سكرتير لجنة العفو يتكلم على الهاتف. فقد بدّلت اللجنة رأيها، وبحثت عن الحاكم الذي كان في عرض البحر، ثم طلبت السجن بالهاتف مباشرة. وأُخرج آبوت من غرفة الغاز. كان الأوان قد فات. لو كان الطقس فقط

---

١ . يجب أن نقول إن الطريقة المتبعة في السجون الأمريكية هي تغيير زنزانة المحكوم عليه عشية تنفيذ الحكم فيه، مع إعلامه بالاحتفال الذي ينتظره .



عاصفاً فوق كاليفورنيا البارحة، لما أبحر الحاكم، ولكان تلفن قبل دقيقتين، ولكان آبوت حياً اليوم، بل ربما رأى براءته تثبت. إن أي عقوبة أخرى، مهما كانت قاسية، كانت تركت له هذه الفرصة. لكن عقوبة الموت لم تترك له أية فرصة مطلقاً.

قد يقال إن هذه الواقعة استثنائية. إن حيواتنا لكذلك أيضاً. ومع ذلك، وخلال الوجود السريع الزوال الذي هو وجودنا، فإن هذا يحدث قريباً منا، على بُعد عشر ساعات في الطائرة. إن تعاسة آبوت ليست استثناء بقدر ما هي نبأ صغير بين سائر الأنباء، غلطة ليست بالمعزولة، إذا ما صدقنا صُحفنا. وعلى كلٍّ، فقد استنتج القانوني "أوليفكروا"، عندما طبَّق حساب الاحتمالات عام ١٨٦٠ على إمكانية الخطأ في الحكم، أن حوالي بريء واحد يُحكم عليه من بين مئتين وسبعة وخمسين محكوماً. فهل النسبة ضعيفة؟ إنها ضعيفة بالنسبة للعقوبات المتوسطة، لامتناهية بالنسبة للعقوبة القصوى. وحين كتب "هيغو" أن المقصلة في نظره تدعى لوزيرك [1]، فإنه لا يعني أن جميع المحكوم عليهم الذين تُقطع رؤوسهم هم لوزيرك، لكن يكفي لوزيرك واحد كي تلطخ سمعتها إلى الأبد. وإننا لنفهم أيضاً أن تكون بلجيكا قد تخلت نهائياً عن إصدار عقوبة الموت بعد خطأ في الحكم، وأن تكون إنكلترا قد طرحت مسألة إلغاء هذه العقوبة بعد قضية هايز. وإننا لنفهم استنتاجات ذلك المدعي العام الذي كتب، حين استُشير بصدد طلب عفو عن مجرم يكاد يكون الجرم ثابتاً عليه وإن لم تكن ضحيته قد وُجدت: "إن بقاء س على قيد الحياة يضمن للسلطة إمكانية أن تدرس على مهل كل خيط جديد

---

١ . إنه اسم البريء الذي أُعدم بالمقصلة في قضية "بريد ليون" .



قد يكتشف فيما بعد... ومن شأنه أن يدل على وجود زوجته [١]... وعلى العكس، فإن تنفيذ الإعدام، بإلغائه امكانية الدراسة الافتراضية هذه، سيعطي، أخشى ذلك، لأرفع خيط محض قيمة نظرية، وإمكانية أسف أرى من غير المناسب خلقها". إن حب العدالة والحقيقة يعبِّر عن نفسه هنا بأسلوب مؤثر، ومن المناسب أن نذكر دوماً، في محاكمنا الجنائية، "بإمكانية الأسف" هذه، التي تلخص تلخيصاً حازماً الخطر الذي يواجهه كل محلف. وبالفعل، بعد أن يموت البريء، لا يعود في مستطاع إنسان أن يفعل له شيئاً، سوى أن يعيد إليه اعتباره. فعند ذاك تُعاد له براءته، التي لم يفقدها قط في الحقيقة، لكن الإعدام الذي ذهب ضحية له، وآلامه الرهيبة، وموته الفظيع، قد أصبحت مكتسبات أبدية. ولا يبق علينا إلا أن نفكر بأبرياء المستقبل، كي يجنبوا مثل هذه العذابات. ولقد تمَّ ذلك في بلجيكا. أما في بلادنا فإن الضمائر مطمئنة، على ما يظهر.

أغلب الظن أنها تستند، في اطمئنانها هذا، إلى فكرة أن العدالة قد حققت، هي الأخرى تقدماً وتسير مع العلم خطوة خطوة. فحين يتكلم الخبير في محكمة الجنايات، يبدو وكأن كاهناً يتكلم، ويوافقه المحلفون، الذين ترعرعوا على دين العلم، على رأيه. بيد أن محاكمات قريبة العهد، أهمها قضية بينار، أعطتنا فكرة جيدة عما يمكن أن تكونه مهزلة الخبراء. إن الجرم لا يثبت بشكل أفضل لمجرد أنه أثبت في بوتقة مخبر، ولو كانت مدرَّجة. إذ أن بوتقة أخرى ستقول العكس، وتحتفظ المعادلة الشخصية بكل أهميتها في هذه الرياضيات الخطرة. إن نسبة العلماء

---

١ . كان المحكوم عليه متهماً بقتل زوجته . لكن جثة هذه الأخيرة لم يقع لها على أثر .



الخبراء حقاً هي نفس نسبة القضاة الخبراء نفسانياً، وأعلى بقليل من نسبة المحلفين الجادين والموضوعيين. واحتمال الخطأ قائم اليوم كالأمس. وغداً، سيحكم خبراء آخرون بالبراءة على آبوت آخر. لكن آبوت سيكون قد مات، علمياً هو الآخر. والعلم، الذي يزعم أنه يبرهن على البراءة كما يبرهن على الإجرام، لم يتوصل بعد إلى بعث من يقتلهم.

وبين المذنبين أنفسهم، هل نستطيع أن نؤكد أنه لم يعدم منهم إلا من لا يمكن إصلاحهم؟ إن جميع الذين تابعوا، بداعي الضرورة مثلي، في فترة ما من حياتهم، القضايا الجنائية، يعلمون أنه تتدخل صدف كثيرة في إصدار حكم ما، ولو كان مميتاً. إن رأس المتهم، وسوابقه (غالباً ما يعتبر الزنا ظرفاً يزيد في بشاعة الجريمة من قبل محلفين لم أستطع قطعاً أن أصدق أنهم كانوا أوفياء جميعاً ودوماً)، ووقفته (التي لا تكون في صالحه إلا إذا كانت اتفاقية، أي كوميدية، في معظم الحالات)، وطريقته في الكلام (المجرمون المزمنون يعرفون أنه ينبغي عليهم ألا يتلعثموا وألا يتكلموا بأسلوب أنيق حاذق)، وحوادث الجلسة التي يتم تقديرها عاطفياً(والحقيقة، مع الأسف، ليست مؤثرة دوماً)، وكثير من الصدف الأخرى، تؤثر على قرار المحلفين النهائي. وفي لحظة إعلان حكم الموت، نستطيع أن نكون على ثقة أنه كان لا بد، للوصول إلى أكثر العقوبات يقينية، من تضافر عدد كبير من الشبهات. وحين نعلم أن الحكم بالموت يتعلق بتقدير يقوم به المحلفون للظروف المخففة. وحين نعلم على الأخص أن إصلاح ١٨٣٢ منح محلفينا سلطة تقرير ظروف مخففة غير محددة، فإننا نستطيع أن نتصور الحرية التي تركت لمزاج المحلفين المؤقت. إنه ليس القانون الذي يقرر بدقة الحالات التي ينبغي فيها أن يصدر الحكم



بالموت، بل المحلفون هم الذين يقدرونه للمحكوم، إذا صحَّ القول. ولما لم يكن هناك هيئتان محلفتان متماثلتان، فإن من نفذ فيه الإعدام كان يمكن ألا ينفذ. فهو إن كان في نظر سكان هذه المقاطعة الشرفاء مجرماً لا يمكن إصلاحه، فإن المواطنين الطيبين في مقاطعة أخرى قد يجدون له عذراً ما. ولسوء الحظ، فإن الساطور نفسه يسقط في كلتا المقاطعتين، وهو لا يفرق.

إن صدف الزمان تنضم إلى صدف الجغرافية لتعزز المهزلة العامة. إن العامل الشيوعي الفرنسي الذي أُعدم على المقصلة في الجزائر لأنه وضع قنبلة (اكتشفت قبل أن تنفجر) في مشلح أحد المصانع، قد حُكم عليه لفعلته كما لمقتضيات الساعة في آن واحد. فقد أرادوا، من خلال الجو الحالي في الجزائر، أن يبرهنوا للرأي العام العربي أن المقصلة موجودة أيضاً بالنسبة للفرنسيين، وأن يرضوا في الوقت نفسه الرأي العام الفرنسي الساخط على جرائم الإرهاب. وأثناء ذلك، كان الوزير الذي يرعى هذا التنفيذ، يقبل أصوات الشيوعيين في دائرته. ولو كانت الظروف غير ما هي عليه، لنجا المتهم بجلده، ومن الممكن بعدئذ أن يشرب ذات يوم، بعد أن يصبح نائباً للحزب، على نفس مائدة الوزير. إن مثل هذه الأفكار مريرة، ولكم أودّ لو تظل حية في عقل حكامنا. عليهم أن يعرفوا أن الزمن والأعراف تتبدل، وأنه سيأتي يوم لن يبدو فيه المذنب، الذي أُعدم بسرعة أكبر مما ينبغي، وحشاً إلى هذا الحد. لكن الأوان يكون قد فات، ولا يبقى مجال إلا للندم أو النسيان. وهم، بالطبع، ينسون. غير أن الأذى الذي لحق بالمجتمع لن يتضاءل. لقد كان اليونانيون يرون أن الجريمة غير المعاقبة تعيث في المجتمع فساداً. لكن



البـراءة المدانة، أو الجريمة التي بولغ في عـقـابهـا، تدنس المجتـمع بالقدر نفسه مع مرّ الزمن. ونحن نعرف ذلك، في فرنسا.

قد يقال: هذه هي عدالة البشر، وهي على عواهنها خير من العسف. لكن وجهة النظر الكئيبة هذه لا تحتمل إلا إزاء العقوبات العادية. لكنها فاضحة أمام أحكام الموت. لقد جاء في مؤلف كلاسيكي في الحقوق الفرنسية، تبريراً لاستحالة وجود درجات في عقوبة الموت، ما يلي: "إن العدالة الإنسانية لا تطمح أبداً إلى تأمين هذه النسبية. لماذا؟ لأنها تعرف أنها قاصرة". فهل ينبغي إذن أن نستنتج أن هذا القصور يسمح لنا بإصدار حكم مطلق، وأن على المجتمع، ما دام غير واثق من تحقيق العدالة الخالصة، أن يلقي بنفسه بسرعة، راكباً أعظم المخاطر، في الظلم المطلق؟ وإذا كانت العدالة تعرف أنها عاجزة، أفليس من المناسب أن تظهر بمظهر التواضع، وان تترك حول أحكامها هامشاً كافياً يمكن معه إصلاح الخطأ المحتمل[1]؟ وهذا الضعف الذي يتيح لها أن تجد لنفسها، بصورة دائمة، ظرفاً مخففاً، ألا ينبغي عليها أن تنسبه أيضاً إلى المجرم نفسه؟ هل يستطيع المحلفون أن يقولوا باحتشام: "إذا قتلناك خطأ، فستسامحنا باعتبار الضعف الموجود في طبيعتنا المشتركة. لكنا نحكم عليك بالموت دون اعتبار لهذا الضعف ولا لهذه الطبيعة". إن ثمة تضامناً بين جميع البشر في الخطأ والضلال. أفينبغي أن تتسلح المحكمة بهذا التضامن وأن يجرد المتهم منه؟ كلا. وإذا كان للعدالة من معنى في هذا العالم، فإنها لا تعني شيئاً سوى الاعتراف بهذا التضامن. وهي لا

---

١ . هنا القضاة أنفسهم على أنهم عفوا عن سيلون الذي قتل ابنته البالغة من العمر أربعة أعوام، كي لا يعطيها لأمها التي كانت تريد أن تطلق. ولقد اكتشفوا بالفعل، أثناء حبسه، أن سيلون يشكو من ورم في الدماغ يمكن أن يفسر جنون عمله.



تستطيع، من حيث ماهيتها بالذات، أن تنفصل عن الرأفة. وبالطبع، إن الرأفة لا يمكن أن تكون هنا إلا الشعور بألم مشترك، لا تسامحاً تافهاً لا يقيم أي اعتبار لآلام الضحية وحقوقها. إنها لا تستبعد العقاب، لكنها تعلق الإدانة المميتة. إنها تأنف من التدبير النهائي الذي لا رجوع فيه، والذي يظلم الإنسان بأسره، ما دام لا يأخذ بعين الاعتبار بؤس الوضع البشري المشترك.

وفي الحقيقة، إن بعض المحلفين يعلمون ذلك حق العلم، لهذا غالباً ما نراهم يقبلون بظروف مخففة في جريمة لايمكن لشيء أن يخفف منها. ذلك أن عقوبة الموت تبدو لهم عندئذ مبالغاً فيها، فيفضلون ألا يعاقبوا بما فيه الكفاية على أن يعاقبوا أكثر مما ينبغي. وفي مثل هذه الحال فإن صرامة العقوبة الشديدة تشجع الجريمة بدل أن تقاصصها. ولا تعقد جلسة واحدة في محكمة الجنايات دون أن نقرأ في صحافتنا أن الحكم غير متماسك منطقياً، وأنه يبدو، أمام الوقائع، ناقصاً أو مبالغاً فيه. لكن المحلفين لا يجهلون ذلك. كل ما هنالك أنهم يفضلون، إزاء ضخامة العقوبة القصوى، أن يظهروا بمظهر المذهولين على أن يورطوا لياليهم القادمة، وهذا ما سنفعله نحن أنفسنا لو كنا مكانهم. إنهم، لعلمهم أنهم قاصرون، يستخلصون على الأقل النتائج المناسبة. وتكون العدالة الحقيقية معهم، بمقدار ما لا يكون المنطق معهم. بيد أن هناك مجرمين كباراً لن يتهاون المحلفون في ادانتهم في أي زمان أو أي مكان. إن جرائمهم أكيدة والأدلة التي يأتي بها الاتهام تنضم إلى اعترافات الدفاع. ولا ريب في أن ما فيهم من شذوذ ووحشية يصنفهم في عداد المرضى. لكن الخبراء النفسيين يؤكدون مسؤوليتهم في معظم الحالات.



فمنذ عهد قريب، في باريس، اعترف شاب، ضعيف الشخصية، لكنه وديع ومحب، وشديد التعلق بذويه، بأنه وجد نفسه مغتاظاً من أبيه إثر ملاحظة أبداها له بسبب عودته متأخراً. كان الأب يقرأ، جالساً أمام مائدة غرفة الطعام. فتناول الشاب فأساً، وضرب أباه من الخلف عدة ضربات مميتة. ثم انهال ضرباً، بالطريقة نفسها، على أمه التي كانت في المطبخ. وخلع ثيابه، وخبأ سرواله الملطخ بالدم في الخزانة، وذهب ليقوم بزيارة لأهل خطيبته، دون أن يترك شيئاً يبدو عليه، ثم عاد إلى بيته وأخبر البوليس بأنه وجد ذويه مقتولين. وسرعان ما اكتشف البوليس السروال الدامي، وحصل، دونما صعوبة، على الاعترافات الهادئة لقاتل والديه. واستنتج الأطباء النفسانيون مسؤولية هذا القاتل من اغتياظه. بيد أن لامبالاته الغريبة التي أظهرها في السجن (قال لمحاميه، مهنئاً نفسه على أن كثيراً من الناس ساروا في جنازة والديه: "لقد كان محبوبين جداً") لا يمكن أن تعتبر طبيعية. لكن قواه العقلية كانت سليمة، على ما يظهر.

إن كثيرين من "الوحوش" يظهرون بوجوه لا يمكن النفاذ إليها. إنهم يعدمون، بمجرد اعتبار الوقائع. والظاهر أن طبيعة جرائمهم أو كبرها لا يسمحان لأحد بأن يتصور إمكانية توبتهم أو تكفيرهم. إذن ينبغي فقط أن نحذر من معاودتهم الجرم، وليس هناك من حل آخر سوى محو وجودهم. وعند هذا الحد الفاصل، وعنده وحده فقط، تكون المناقشة حول عقوبة الموت مشروعة. أما في سائر الحالات الأخرى، فإن حجج المحافظين لا تصمد أمام انتقاد أنصار الإلغاء. وهنا، وباعتبار الجهل الذي نحن فيه، لا بد لنا من أن ندخل في مجازفة. فليس هناك أية



واقعة أو أية محاكمة عقلية بقادرة على أن تعطي الحق لأحد الطرفين: من يرى أنه يجب أن تمنح فرصة لحثالة البشر، ومن يرى أن هذه الفرصة غير مجدية. لكن ربما كان من الممكن، عند هذا الحد الأخير، أن نتجاوز التناحر الطويل الأمد بين أنصار عقوبة الموت وخصومها، بتقييمنا فائدة هذه العقوبة اليوم، في أوربا. وسأحاول، بالقليل القليل من الكفاءة، أن ألبي أمنية حقوقي سويسري، الأستاذ جان غرافان، الذي كتب عام ١٩٥٢، في دراسته المرموقة عن عقوبة الموت: "...إزاء المشكلة التي تنطرح من الآن فصاعداً على ضميرنا وعلى عقلنا، نرى أن الحل ينبغي أن يُبحث عنه لا في مفاهيم الماضي ومشاكله وحججه، ولا في آمال المستقبل ووعوده النظرية، بل في الأفكار والمعطيات والضرورات الراهنة" [١]. وبالفعل، نستطيع أن نناقش إلى ما لا نهاية حول محاسن عقوبة الموت وأضرارها عبر القرون أو في سماء الأفكار. لكنها تلعب دوراً الآن وهنا، وعلينا أن نحدد موقفنا الآن وهنا، في مواجهة الجلاد العصري. فماذا تعني عقوبة الموت بالنسبة لبشر نصف القرن هذا؟

لنقل، رغبة في التبسيط، إن مدنيتنا قد أضاعت القيم الوحيدة التي تستطيع، إلى حد ما، أن تبرر هذه العقوبة، وهي تشكو على العكس من الشرور التي تقتضي إلغاءها. وبتعبير آخر، إن إلغاء عقوبة الموت يجب أن يطالب به الأعضاء الواعون في مجتمعنا، لأسباب منطقية وواقعية في آن واحد.

لنتكلم عن الناحية المنطقية أولاً. أن نقرر أن رجلاً ينبغي أن يحلّ به العقاب الأقصى، يعني أن نقرر أن هذا الرجل لم يعد له من حظ في

---

١ . مجلة علم الإجرام و البوليس التقني، جنيف، عدد خاص، ١٩٥٢ .



التكفير. وحول هذه النقطة، لنكرر ذلك، تتواجه الحجج خبط عشواء وتتبلور في تعارض عقيم. ولكن، لهذا بالضبط، لا يستطيع أي منا أن يدلي برأي قاطع في هذا الصدد، لأن كلاً منا هو الخصم والحكم. ومن هنا كان عدم يقيننا حول الحق الذي لنا في القتل، وعجزنا عن أن يقنع بعضنا بعضاً. فبدون براءة مطلقة، لا يوجد قاضٍ مطلق العدالة. والحال أننا جميعاً اقترفنا شراً في حياتنا، وهذا الشر قد يصل أحياناً إلى حد الجريمة المجهولة، وإن كان لا يقع تحت طائلة القانون. ليس هناك عادلون، بل مجرد قلوب متفاوتة الفقر في العدالة. إن العيش يسمح لنا، على الأقل، بمعرفة ذلك وبأن نضيف إلى مجموع أعمالنا شيئاً من الخير يعوض، جزئياً، عن الشر الذي ألحقناه بالعالم. إن هذا الحق في الحياة، الذي يتوافق مع إمكانية التكفير، هو الحق الطبيعي لكل إنسان، حتى وإن كان من حثالة البشر. إن أرذل المجرمين وأنزه القضاة يلتقيان في هذا الحق جنباً إلى جنب، بائسين ومتضامنين سواسية. والحياة الأخلاقية بدون هذا الحق مستحيلة تماماً. وليس مسموحاً لأي منا، على الأخص، أن ييأس من إنسان واحد، إلا بعد موته الذي سيجعل من حياته مصيراً ويسمح بالتالي بالحكم النهائي. لكن أن نصدر الحكم النهائي قبل الموت، وأن نقضي بختم الحسابات والدائن لا يزال على قيد الحياة، فهذا ليس من حق أي إنسان. وعلى هذا الصعيد، على الأقل، فإن من يحكم حكماً مطلقاً يدين نفسه إدانة مطلقة.

لقد صرح برنار فالو، من عصابة مازوي، عميل الغستابو، الذي حُكم عليه بالموت بعد اعترافه بالجرائم الرهيبة العديدة التي اقترفها، والذي مات بأعظم شجاعة، صرح بنفسه أنه لايمكن أن يعفى عنه. لقد



قال لرفيق له في السجن: "إن يديَّ حمراوان بدم كثير" [١]. يقيناً، لقد وضعه الرأي العام ورأي قضاته في عداد من لايمكن إصلاحهم، وكنت سأقبل بهذا لولا أنني قرأت شهادة مدهشة. إليكم ما قاله لهذا الزميل نفسه، بعد أن صرح بأنه يريد أن يموت بشجاعة: "أتريد أن أخبرك بعميق أسفي. حسناً! إنني آسف على أنني لم أعرف قبل الآن الكتاب المقدس الموجود لديَّ هنا. أؤكد لك أنني ما كنت وصلت إلى ما وصلت إليه". وليس المقصود هنا الاسترسال مع التخيلات التقليدية واستذكار طيبة المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة كما صوّرهم فيكتور هيغو. لقد كانت عصور الاستنارة، كما يقال، تريد إلغاء عقوبة الموت بحجة أن الإنسان خير بجوهره. وبالطبع، إنه ليس كذلك (إنه أسوأ أو أحسن). ونحن نعرف ذلك بعد عشرين سنة من تاريخنا "الرائع". لكن لأنه ليس كذلك، لا يستطيع إنسان أن ينزل نفسه منزلة القاضي المطلق، وأن يصدر حكمه بمحق وجود أرذل المذنبين، مادام أي منا لا يستطيع ادعاء البراءة المطلقة. إن الحكم الأقصى يحطم التضامن الإنساني الوحيد الذي لا يحتمل النقاش، التضامن ضد الموت، وهو لايمكن أن يكون مشروعاً إلا بوساطة حقيقة أو مبدأ يضع نفسه فوق البشر.

وبالفعل، كان العقاب الأقصى دوماً، على مر الأزمان، عقوبة دينية. وحين كان يصدر باسم الملك، ممثل الله على الأرض أو من قبل الكهنة، أو باسم المجتمع المعتبر هيئة مقدسة، لم يكن يحطم التضامن الإنساني آنذاك، بل يحطم انتماء المذنب إلى المجتمع الإلهي، القادر وحده على منحه الحياة. إن الحياة الأرضية تؤخذ منه بلا ريب، لكن

---

١ . جان بوكونيانو في كتابه "حي الوحوش ، سجن فرين"



إمكانية التكفير تترك له. إن الحكم الحقيقي لم يصدر، إنما سيصدر في العالم الآخر. إذن فالقيم الدينية، ورجاحة الإيمان بالحياة الأبدية، هي القيم الوحيدة التي يمكن أن ينبني عليها العقاب الأقصى ما دامت تمنع، حسب منطقها الخاص، أن يكون نهائياً لا رجوع فيه. وعندئذ لا يكون مبرراً إلا بمقدار ما لا يكون نهائياً.

لقد قبلت الكنيسة الكاثوليكية دوماً، على سبيل المثال، بضرورة عقوبة الموت. ولقد كانت تتولى هي نفسها إصدارها في عصور سابقة، ودونما بخل. وهي لا تزال إلى اليوم تبررها وتعترف للدولة بحق تطبيقها. ومهما كان موقفها قابلاً لتأويلات متفاوتة، فإنه يصدر عن فكرة متأصلة عبَّر عنها مباشرة، في عام ١٩٣٧، مستشار الأمة السويسري في فريبورغ، أثناء مناقشة في المجلس القومي، حول عقوبة الموت. فالسيد غران يرى أن أسوأ المجرمين يعود إلى نفسه أمام تهديد التنفيذ: "إنه يتوب فيسهل استعداده للموت. لقد أنقذت الكنيسة أحد أعضائها، وحققت رسالتها الإلهية. ولهذا رضيت دوماً بعقوبة الموت، لا كوسيلة للدفاع المشروع فحسب، بل أيضاً كوسيلة عظمى للخلاص... ودون أن نزعم أن عقوبة الموت هي من اختراع الكنيسة، إلا أننا نقول إن هذه العقوبة تستطيع أن تدَّعي لنفسها مفعولاً شبه إلهي، مثلها مثل الحرب".

واستناداً إلى هذه الفكرة نفسها بلا ريب، كنا نستطيع أن نقرأ، على سيف جلاد فريبورغ، هذه العبارة: "أيها الرب يسوع، أنت القاضي". وهكذا كان الجلاد يعتبر نفسه مقلداً وظيفة مقدسة. إنه الرجل الذي يهدم الجسد ليسلم الروح إلى الحكم الإلهي الذي لا يمكن لأي إنسان



أن تكون له عنه فكرة مسبقة. وسيقدّر القراء، على الأرجح، أن أمثال هذه العبارات تجرّ معها التباسات فاضحة. ولا ريب في أن هذا السيف إهانة إضافية لشخص المسيح، في نظر من يتمسك بتعاليم يسوع. ونستطيع أن نفهم، على هذا الضوء، الكلمة الرهيبة التي فاه بها روسي محكوم قبل أن يشنقه جلادو القيصر، في عام ١٩٠٥، عندما قال بحزم للكاهن الذي جاء يعزيه بصورة المسيح: "ابتعد ولا تدنس القدسيات". وغير المؤمن لا يستطيع هو الآخر أن يمنع نفسه من التفكير بأنه ينبغي على البشر، الذين بنوا إيمانهم على فكرة الضحية المروعة لخطأ قانوني[١]، أن يتحفظوا على الأقل أمام القتل الشرعي. ويمكننا أيضاً أن نذكّر المؤمنين بأن الإمبراطور يوليانوس لم يكن يريد، قبل اهتدائه، أن يسلّم المسيحيين مهام رسمية، لأن هؤلاء كانوا يرفضون رفضاً قاطعاً إصدار أحكام الموت أو المشاركة فيها. إذن، لقد اعتقد المسيحيون، طوال خمسة قرون، أن التعليم الأخلاقي الحرفي لمعلمهم يمنع القتل. لكن الإيمان الكاثوليكي لا يتغذى فقط من تعليم المسيح الشخصي، بل يتغذى أيضاً من "العهد القديم" ومن القديس بولس وآباء الكنيسة على حد سواء. وخلود الروح والبعث العام للأجسام هما بشكل خاص من مقومات العقيدة الكنسية. ومن هنا كانت العقوبة القصوى، في نظر المؤمن، عقاباً مؤقتاً يترك الحكم الأخير معلقاً، وتدبيراً ضرورياً فقط للنظام الأرضي، وإجراءً إدارياً لا يقضي على المذنب بل يمهد على العكس لخلاصه. وأنا لا أقول إن المؤمنين جميعاً يفكرون على هذا النحو، وإني لأتصور بدون مشقة أن يقف بعض الكاثوليكيين موقفاً أقرب إلى

---

١ . يشير بذلك إلى محاكمة المسيح وقتله صلباً . (المترجم)



المسيح منه إلى موسى أو القديس بولس. إلا أني أقول فقط إن الإيمان بخلود الروح سمح للكاثوليكية بطرح مشكلة العقوبة القصوى بمفردات متفاوتة كثيراً، وبتبريرها.

لكن ماذا يعني هذا التبرير في المجتمع الذي نعيش فيه، والذي لم يعد مقدساً لا في مؤسساته ولا في أعرافه؟ فحين يصدر حاكم ملحد، أو ريبي، أو لاأدري، حكم الموت على محكوم غير مؤمن، فإنه يصدر حكماً بعقاب نهائي لا يمكن إعادة النظر فيه. إنه يضع نفسه على عرش الله [1] دون أن تكون له قدراته، ودون أن يؤمن به على كل حال. مجمل القول، إنه يقتل لأن أسلافه كانوا يؤمنون بالحياة الأبدية. لكن المجتمع، الذي يزعم أنه يمثله، يصدر في الواقع حكماً بتدبير ماحق للوجود، ويحطم المجتمع الإنساني المتحد ضد الموت، وينزل نفسه منزلة القيمة المطلقة ما دام يدعي السلطة المطلقة. وهو بلاريب ينتدب كاهناً لإرساله إلى المحكوم عليه، عملاً بالتقاليد. ويستطيع الكاهن أن يأمل شرعاً أن يساعد الخوف من العقاب على اهتداء المذنب. لكن من يقبل بأن تبرر، بهذا الحساب، عقوبة مفروضة ومتقبلة في أغلب الأحيان بروح مغايرة تماماً؟ إن الإيمان قبل الخوف شيء، والاهتداء إلى الإيمان بعد الخوف شيء آخر. إن الاهتداء بالنار أو الساطور يظل دوماً مشبوهاً. ولقد كان من حقنا أن نعتقد أن الكنيسة تخلت عن فكرة الانتصار على الكافرين بالإرهاب. وعلى كل الأحوال، فإن المجتمع الفاقد لقدسيته لا يستطيع أن يستخلص شيئاً من اهتداء يدّعي أنه لا يهمه. إنه يسنّ قصاصاً مقدساً، وفي الوقت نفسه يجرّده من مبرراته ومنفعته. إنه يهذي على حساب

---

١ . من المعروف أن قرار المحلفين يبدأ دوماً بالعبارة التالية : "أمام الله وضميري" .



ذاته، ويمحق بمطلق القوة الأشرار من حظيرته، وكأنه هو الفضيلة بعينها. شأنه شأن رجل محترم يقتل ابنه الحائد عن طريق الصواب قائلاً: "حقاً، لم أعد أعرف ما أفعل به". إنه يمنح نفسه حق الانتقاء، وكأنه الطبيعة عينها، وحق إضافة آلام لامحدودة إلى الإعدام، وكأنه إله قادر.

وعلى كل، فإن التأكيد بأنه ينبغي فصل الإنسان فصلاً مطلقاً عن المجتمع، لأنه شرير شراً مطلقاً، يعدل القول بأن هذا المجتمع خيّر خيراً مطلقاً، وهذا ما لن يصدقه إنسان عاقل اليوم. لن يصدق أحد ذلك، بل إنه سيعتقد العكس بسهولة أكبر. إن مجتمعنا لم يصبح رديئاً ومجرماً إلى هذا الحد إلا لأنه أنزل نفسه منزلة الغاية الأخيرة، وبات لا يحترم شيئاً غير بقائه أو نجاحه في التاريخ. يقيناً، لقد زالت عنه قدسيته. لكنه أخذ منذ القرن التاسع عشر يكوّن لنفسه بديلاً من دين، بطرحه نفسه كموضوع للعبادة. إن مذاهب التطور وأفكار الانتقاء التي كانت ترافقها أنزلت مستقبل المجتمع منزلة الهدف الأخير. إن الطوبائيات السياسية التي نبتت على شجرة هذه المذاهب أحلت، في نهاية الأزمان، عصراً ذهبياً يبرر مقدماً جميع المشاريع. لقد اعتاد المجتمع على إضفاء طابع الشرعية على كل ما يمكن أن يخدم مستقبله، واعتاد بالتالي على استعمال القصاص الأعظم بطريقة مطلقة. ومن هنا اعتبر كل ما يناقض مشروعه وعقائده الزمنية جريمة وانتهاكاً للقدسيات. وبتعبير آخر، أصبح الجلاد موظفاً بعد أن كان كاهناً. والنتيجة التي ينبغي أن نستخلصها من ذلك كله واضحة، ألا هي أن مجتمع نصف القرن هذا الذي أضاع، بموجب المنطق السليم، الحق في إصدار العقوبة القصوى، ينبغي عليه الآن أن يلغيها لأسباب متعلقة بالواقعية.



كيف تحدد حضارتنا موقفها، بالفعل، أمام الجريمة؟ الجواب بسيط: منذ ثلاثين سنة وجرائم الدولة تفوق بكثير جرائم الأفراد. إنني لا أتكلم حتى عن الحروب العامة أو المحلية، وإن كان الدم كحولاً يسمم، مع مرّ الزمن، كأفتك الخمور. لكن عدد الأفراد الذين تقتلهم الدولة مباشرة أخذ نسباً فلكية،وهو يتجاوز اليوم، إلى ما لا نهاية، الجرائم الخاصة. إن عدد المحكومين العاديين يتضاءل، بينما يزداد عدد المحكومين السياسيين أكثر فأكثر. والدليل أن كلاً منا، مهما كان محترماً، يستطيع أن يتصور إمكانية إعدامه ذات يوم، في حين أن هذا الاحتمال كان سيبدو مضحكاً في أوائل القرن. إن نكتة الفونس كار [١] : "ليبدأ السادة القتلة" لم يعد لها من معنى. إن أكبر سفاكي الدماء هم أنفسهم الذين يعتقدون أن الحق والمنطق والتاريخ معهم.

إذاً فليس على مجتمعنا أن يحمي نفسه من الفرد بمقدار ما عليه أن يحمي نفسه من الدولة اليوم. ومن الممكن أن تكون النسب قد انعكست في غضون ثلاثين عاماً، لكن الدفاع المشروع ينبغي اليوم أن يوجه ضد الدولة وحدها في البداية. إن العدالة ومقتضيات الواقعية تحتم أن يحمي القانون الفرد ضد دولة مستسلمة لجنون التحزب أو الكبرياء. إن شعار تعاضدنا ينبغي أن يكون اليوم: *"لتبدأ الدولة ولتلغ عقوبة الموت"*.

لقد قيل إن القوانين الدموية تلطخ الأخلاق بالدم. لكن قد يحدث أن توجد، في مجتمع معين، حالة من السفالة لا تتمكن فيها الأعراف السائدة، رغم جميع ضروب الفوضى والاختلال، من أن تصبح دامية دموية القوانين. إن نصف أوروبا يعرف هذه الحالة. ولقد عرفناها، نحن

---

١ . كاتب فرنسي (١٨٠٨–١٨٩٠) . (المترجم)



الفرنسيين، وإننا لمهددون بأن نعرفها من جديد. إن من أعدمهم الاحتلال أفضوا إلى من أعدمهم التحرير، ويحلم أصدقاء هؤلاء الأخيرين بالانتقام. وفي مكان آخر تستعد بعض الدول المثقلة بالكثير من الجرائم لإغراق إجرامها في مجازر أكبر أيضاً. إنهم يقتلون من أجل أمة أو من أجل طبقة مؤلهة. إنهم يقتلون من أجل مجتمع قادم، يؤلّه هو الآخر. ومن يظن أنه يعرف كل شيء يتصور أنه يستطيع كل شيء. إن أصناماً زمنية، تتطلب إيماناً مطلقاً، تصدر بلا كلل عقوبات مطلقة. وإن أدياناً لا تعالي فيها تقتل قتلاً جماعياً محكومين بلا أمل.

كيف سيتسنى لمجتمع نصف القرون الأوروبي أن يبقى على قيد الحياة، دون أن يقرر الدفاع عن الأشخاص، بكل الوسائل، ضد اضطهاد الدولة؟ إن منع تنفيذ الموت برجل يعني المناداة علناً بأن المجتمع والدولة ليسا بقيم مطلقة، والتقرير بأن لا شيء يأذن لهما بسن قوانين نهائية أو بتسبيب ما لا يمكن الرجوع عنه. ولولا عقوبة الموت، ربما كان غبرييل بيري وبرازياك بيننا اليوم[1]. وربما كنا نستطيع أن نحاكمهما حسب رأينا، وأن نصدر بكبرياء حكمنا بدل أن يحاكمانا هما الآن، بينما نلتزم نحن جانب الصمت. ولولا عقوبة الموت لما سممت جثة راجك المجر[2]، ولاستقبلت المانيا لو كانت أقلّ إجراماً استقبالاً أفضل في أوروبا، ولما احتضرت الثورة الروسية في العار، ولكانت وطأة الدم الجزائري أخفّ على ضمائرنا. ولولا عقوبة الموت أخيراً، لما أنتنت أوروبا بالجثث

---

١ . فرانكار .

٢ . كاتبان فرنسيان : أولهما شيوعي أعدمه النازيون عام ١٩٤١ ، وثانيهما متعاطف مع النازية وقد أعدم عند تحرير فرنسا عام ١٩٤٥ . (المترجم)



المتراكمة على أرضها المنهكة منذ عشرين عاماً. إن جميع القيم، في قارّتنا، انقلبت بسبب الخوف والحقد، بين الأفراد كما بين الأمم. إن صراع الأفكار يتم بالحبل والساطور. ولم يعد المجتمع الإنساني والطبيعي هو الذي يمارس حقوقه في القمع، بل العقيدة المسيطرة والمطالبة بهذه التضحيات الإنسانية. ولقد أمكن لأحدهم [١] أن يكتب : "إن العبرة التي تعطيها المقصلة دوماً هي أن حياة الإنسان تكف عن أن تكون مقدسة، حين نرى أن من المفيد قتله". وعلى ما يبدو، فإن هذه الفائدة تزداد، والعبرة تنتشر، والعدوى تمتد إلى كل مكان، وتمتد معها فوضى العدمية. ينبغي إذاً أن نضع علانية وبكل تصميم حداً هذا كله، وأن نعلن، في المبادئ وفي المؤسسات، أن الشخص الإنساني فوق الدولة. فكل تدبير يخفف من ضغط القوى الإجتماعية على الفرد، سيساعد على إنقاذ أوروبا من احتقان الدم، وسيسمح لها بأن تفكر تفكيراً أفضل وبأن تتقدم نحو الشفاء. إن مرض أوروبا هو أنها لا تؤمن بشيء، وتزعم أنها تعرف كل شيء. لكنها لا تعرف كل شيء، يجب أن نقول ذلك. وإذا ما حكمنا من التمرد والرجاء الذي نحن فيه، فإنها تؤمن بشيء ما: إنها تؤمن بأن شقاء الإنسان الأقصى يمسّ، عند حد غامض ما، عظمته القصوى. لقد فقد معظم الأوربيين الإيمان، وفقدوا معه التبريريات التي كان يأتي بها على صعيد العقاب. لكن معظم الأوربيين يتقيئون أيضاً وثنية الدولة التي ادّعت أنها تنوب مناب الإيمان. إن علينا من الآن فصاعداً، ونحن في منتصف الطريق، ونحن واثقون وغير واثقين، وعازمون على ألا نعاني وعلى ألا نضطهِد، إن علينا أن نتعرف في

---

١ . لاسلو راجك : قائد شيوعي مجري اتهم بالتعاطف مع التيتوية ، فأعدم شنقاً عام ١٩٤٩ .



الوقت نفسه أملنا وجهلنا، وأن نرفض الإيمان المطلق، والقانون الذي لا رجوع فيه.

إن لدينا من المعرفة ما يكفي لنقول إن هذا المجرم الكبير يستحق الأشغال الشاقة المؤبدة. لكننا لا نملك من المعرفة ما يكفي لنقرر تجريده من مستقبله الخاص، أي من فرصتنا المشتركة في التفكير. إن إلغاء عقوبة الموت ينبغي أن يكون المادة الأولى في الدستور الأوروبي الذي نأمل به جميعاً، دستور أوروبا الغد المنتظرة.

إن الطريق، من غنائيات القرن الثامن عشر الإنسانية إلى المقصلات الدامية، مستقيمة، والجلادون اليوم، جميعنا نعرف ذلك، إنسانيو النزعة. وبالتالي لن نكون مخطئين إذا ما ساورتنا الشكوك بالإيديولوجيا الإنسانوية في مشكلة كمشكلة عقوبة الموت. إني أودّ إذاً، وقد قاربت على الانتهاء، أن أكرر أنه لا الأوهام عن الطيبة الطبيعية للإنسان، ولا الإيمان في عصر ذهبي قادم، هي التي تفسر معارضتي لعقوبة الموت. بل إن إلغاءها، على العكس، يبدو لي ضرورياً لأسباب راجعة إلى التشاؤم المبرر والمنطق والواقعية. وما ذلك لأن القلب لا دخل له فيما أقول. إن من قضى أسابيع في رفقة النصوص والذكريات والبشر الذين لهم علاقة بالمقصلة من بعيد أو قريب، لا يستطيع أن يخرج من هذا الدرب الشائك كما دخل إليه. لكني في الوقت نفسه لا أعتقد، يجب تكرار ذلك، أن لا وجود لأي مسؤولية في هذا العالم، ولا أعتقد أن علينا أن نخضع لهذا الاتجاه العصري الذي ينادي بغفران كل شيء، الضحية والقاتل، في بلبلة واحدة. إن هذه البلبلة العاطفية الخالصة تقوم على الجبن أكثر منها على الكرم، وهي



تبرر في النهاية كل ما هو سيء في هذا العالم. وإذا ما أكثرنا من المباركة، فإننا سنبارك أيضاً معسكر العبيد، والقوة الغاشمة، والجلادين المنظمين، ومجون كبار وحوش السياسة، وسنسلم في النهاية إخواننا. وهذا ما نعاينه من حولنا. لكن إنسان العصر، في وضع العالم الراهن، يطالب بقوانين ومؤسسات نقاهة، تلجمه دون أن تسحقه. إنه بحاجة، أثناء انطلاقه في دينامية التاريخ التي لا تكبح، إلى فيزياء وإلى عدد من قوانين التوازن. ومجمل القول، إنه بحاجة إلى مجتمع عقل لا إلى هذه الفوضى التي ألقت به فيها كبرياؤه الذاتية وسلطات الدولة التي لا حدّ لها.

إنني مقتنع بأن إلغاء عقوبة الموت سيساعدنا على التقدم في طريق هذا المجتمع. وستستطيع فرنسا، لو أخذت هذه المبادهة، أن تقترح مدّها إلى البلدان التي لم تلغِ بعد عقوبة الموت، في كلا جانبي الستار الحديدي. لكن عليها قبل كل شيء أن تعطي المثل. وستحل آنذاك مكان عقوبة الموت الأشغال المؤبدة بالنسبة لمن لا يرجى منه إصلاح، والأشغال الشاقة المؤقتة بالنسبة للآخرين. ومن يقدّر أن هذه العقوبة أقسى من العقوبة القصوى، فإننا سنجيبه بإعلان دهشتنا من كونه لم يقترح، في مثل هذه الحالة، إدخارها لأمثال لاندرو[1]، وتطبيق العقوبة القصوى بالمقابل على المجرمين الثانويين. وسنذكّره أيضاً بأن الأشغال الشاقة تترك للمحكوم عليه إمكانية اختيار الموت، في حين أن المقصلة لا تفتح أي طريق للعودة. أما من يقدّر، على العكس، أن الأشغال الشاقة عقوبة

---

١ . مجرم روّع فرنسا بجرائمه البشعة . وكان ضحاياه من النساء . كان يوهم المرأة بحبه لها ، ثم يقتلها ، ويحرقها في فرن عنده . أعدم عام ١٩٢٢ . (المترجم)



متساهلة، فسنجيبه أولاً أنه يفتقر إلى الخيال، وأن الحرمان من الحرية لا يبدو له ثانياً قصاصاً خفيفاً إلا بمقدار ما علمنا المجتمع احتقار الحرية[1].

إن قابيل لم يُقتل، وإن كان البشر ينظرون إليه على مرّ القرون نظرة استنكار: هذه هي، على كل حال، الأمثولة التي ينبغي علينا أن نستخلصها من العهد القديم، وكم بالأحرى من الأناجيل، بدلاً من أن نستوحي الأمثلة الفظة من الشريعة الموسوية. ولا شيء يمنع على كل حال أن تقدم بلادنا على تجربة ما، محددة زمنياً (العشر سنوات مثلاً)، إذا كان برلماننا لا يزال عاجزاً عن التكفير عن اقتراعاته المحبِّذة لإنتاج الكحول بذلك التدبير الحضاري الكبير الذي هو إلغاء عقوبة الموت نهائياً. وإذا كان الرأي العام وممثلوه لا يستطيعون حقاً أن يتخلوا عن هذا القانون الكسول الذي يكتفي بمحق وجود من لا يستطيع إصلاحه، فلنسعَ على الأقل، بانتظار يوم تشرق فيه الحياة الجدية والحقيقية، إلى إلغاء هذا "المسلخ الاحتفالي" [2] الذي يلّوث مجتمعنا. إن عقوبة الموت كما تطبق، ومهما كان تطبيقها قليلاً، لهي مجزرة مقرفة، إهانة موجهة إلى شخص الإنسان وجسمه. إن بتر العنق هذا، وهذا الرأس الحي

---

١ . إليكم أيضاً تقرير النائب ديبون في الجمعية الوطنية، عن عقوبة الموت، في ٣١ أيار ١٧٩١ : "إن مزاجاً حاداً محرقاً يتأكله (القاتل)، وأكثر ما يخشاه هو الراحة. إنها حالة تتركه وحيداً مع نفسه، وإنما لكي يخرج منها يزدري الموت باستمرار ويسعى إلى القتل. العزلة وضميره، هذا هو عذابه الحقيقي. ألا يدلنا هذا على أي نوع من القصاص يجب أن تفرضوه عليه، وعلى أي نوع سيكون حساساً به أكثر من غيره؟ ألا ينبغي أن نستمد من طبيعة المرض الدواء الذي سيشفيه؟". إن هذه الجملة الأخيرة تجعل من هذا النائب القليل الشهرة ممهداً حقيقياً لعلماء النفس في العصر الحاضر.

٢ . التعبير لغبرييل تارد.



والمقطوع، ونافورات الدم الطويلة هذه، إنما يعود تاريخها إلى عصر همجي كان يعتقد أنه يرهب الشعب بمشاهد مذلّة. واليوم، إذ يتم تنفيذ هذا الموت الدنيء خلسة، فأي معنى بقي لهذا العذاب؟ الحقيقة هي أننا نقتل في عصر الذرة كما كنا نقتل في عصر القبان. وليس ثمة من إنسان، طبيعي الحساسية، لا يأخذه الغثيان، لمجرد التفكير بهذه الجراحة الفظة. وإذا كانت الدولة الفرنسية عاجزة عن الانتصار على نفسها في هذا المضمار، وعن أن تقدم لأوروبا أحد الأدوية التي هي بحاجة إليها، فلتبدأ على الأقل بإصلاح طريقة تطبيق عقوبة الموت. إن العلم الذي يفيد في القتل بكثرة يستطيع أن يفيد على الأقل في القتل بحشمة. إن بنجاً ينقل المحكوم عليه من حالة النوم إلى الموت، ويظل بمتناوله لمدة يوم على الأقل كي يستعمله بحرية، ويفرض عليه بطريقة أخرى فيما إذا رفض استعماله أو خانته ارادته، إن بنجاً كهذا سيضمن الموت، إذا ما بقينا متمسكين به، لكنه سيضفي شيئاً من الحشمة على عملية ليس فيها اليوم إلا عرض دنيء وبذيء.

إنني أشير إلى مثل هذا الحل الوسط بمقدار ما ينبغي علينا أن نيأس أحياناً من أن نرى الحكمة والحضارة تفرضان نفسيهما على المسؤولين عن مستقبلنا. إن معرفة عقوبة الموت على حقيقتها وعدم القدرة على منع تطبيقها شيء لا يحتمل ويقشعر له البدن بالنسبة لبعض البشر. وهم أكثر عدداً مما يظن. إنهم هم أيضاً يقاسون من هذه العقوبة، على طريقتهم، وبدون أي عدل. فلتخفف على الأقل من وطأة هذه الصور القذرة التي يرزحون تحتها، والمجتمع لن يخسر بذلك شيئاً. لكن هذا أيضاً، في النهاية، ليس كافياً. فلن يكون هناك سلام دائم، لا في قلوب الأفراد ولا في أخلاق المجتمع، ما لم يوضع الموت خارج القانون.




مكتبة
الفكر الجديد

أعراس


مكتبة
الفكر الجديد

أعراس في تيبازه

في الربيع، تيبازه تسكنها الآلهة، والآلهة تتكلم بحديث الشمس ورائحة الأفسنتين، والبحر المدرع بالفضة، والسماء الزرقاء اللاظية، والخرائب الملتحفة بالأزهار، والنور الذي يتدفق تدفقاً عظيماً بين أكوام الحجارة. في أويقات معينة، يكون الريف أسود من الشمس. تحاول العين عبثاً أن تلتقط شيئا آخر غير قطرات النور والألوان التي ترتعد على حافة الأهداب. تخدش رائحة النباتات العطرية العابقة الحلق وتخنق في الحر الشديد.

لا أكاد أرى، في أقصى المشهد، الكتلة السوداء لجبل شنوة الذي تمتد جذوره في التلال المحيطة بالقرية، ويهتز بإيقاع واثق ثقيل ليتناءى فيقبع في البحر.

نصل إلى القرية المنفتحة على الخليج. ندخل إلى عالم أصفر وأزرق تستقبلنا فيه تنهدةُ أرض الصيف في الجزائر المعطار الواخزة. جدران الفيلات، في كل مكان، تتعرش عليها نباتات البامية بحمرتها التي لا تزال باهتة، وحواش رقيقة من أزهار السوسن الطويلة الزرقاء. الحجارة كلها ساخنة. عندما نهبط من الأوتوبيس العسجدي اللون، يكون الجزارون في سياراتهم الحمراء يقومون بجولتهم الصباحية، ونفير أبواقهم ينادي السكان.



إلى يسار المرفأ، يفضي درج من الحجارة الجافة إلى الخرائب بين أشجار المصطكى والرتم. يمر الدرب أمام منارة صغيرة ليغوص فيما بعد في قلب الريف. وبدءاً من أسفل المنارة، تنحدر نباتات غليظة لحمية الأوراق، أزهارها بنفسجية وصفراء وحمراء، نحو الصخور الأولى التي يرشفها البحر بحفيف كحفيف القبلات. ننظر، وقوفاً في الريح الخفيفة، تحت الشمس التي تلفح جانباً واحداً من أوجهنا، إلى النور يهبط من السماء إلى البحر لا يجعده غضن واحد، وإلى ابتسام أسنانه الوضيئة. قبل أن ندخل إلى مملكة الخرائب، نلقي نظرة متفرجة أخيرة.

نسير بضع خطوات، فيطبق الأفسنتين على خناقنا. ليفه الرمادي يغطي الخرائب على مد النظر. أريجه يختمر تحت الحر. ومن الأرض إلى الشمس يصعد على كل مدى العالم خمر سخي تترنح له السماء. نسير إلى لقاء الحب والشهوة. لا نسأل دروساً، ولا نبحث عن الفلسفة المريرة التي تطلب من أجل العظمة. كل شيء يبدو لنا باطلا، ما عدا الشمس، والقبل، والعطور الوحشية. أما أنا، فلا أسعى إلى أن أكون وحدي. لقد أتيت إلى هنا غالباً مع من أحبهم وكنت أقرأ على أساريرهم الابتسامة الوضاء التي يشرق بها وجه الحب. إنني أترك هنا لغيري النظام والاعتدال. إنه فجور الطبيعة والبحر اللامحدود الذي يأسر خلاياي كلها. في زواج الخرائب والربيع هذا، استحالت الخرائب صخوراً، وعادت إلى أمها الطبيعة، وقد تجردت من ملمسها الصقيل الذي فرضه عليها الإنسان. لقد أفاضت الطبيعة بالأزهار، احتفالاً بعودة هاتيك البنات الضالات. بين حجارة الساحة يطل عباد الشمس برأسه المستدير الأبيض، وتسفح أزهار إبر الراعي الحمراء دمها على ما كان منازل، معابد،



وساحات عامة. وكأولئك الرجال الذين يعيدهم العلم الكثير إلى الله، عادت أعوام كثيرة بالخرائب إلى بيت أمها. اليوم أخيراً يتركها الماضي، ولاشيء ينسيها هذه القوة العميقة التي تعود بها إلى قرار الأشياء الخربة.

ما أكثر ما أمضيت من ساعات أسحق الأفسنتين، أداعب الخرائب، أحاول أن أتنفس على إيقاع واحد مع تنهدات العالم اللجبة! كنت وأنا منكفئ بين الروائح الوحشية وموسيقى الحشرات المتناومة، أفتح عينيَّ وأفتح قلبي لهذه العظمة التي لا تطاق، عظمة السماء المحتقنة بالحرارة. لا، ليس سهلاً أن يصير الإنسان ما هو صائر إليه، وأن يهتدي إلى إيقاعه العميق. ولكن إذ كنت أرنو إلى الصلب المتين لجبل شنوة، كان قلبي يطمئن إلى يقين غريب. كنت أتعلم كيف أتنفس، وكنت أحقق نفسي وأندمج. كنت أتسلق التلال الواحد تلو الآخر، فأجد في كل منها مكافأة أحتفظ لي بها، كذلك المعبد الذي تقيس أعمدته مسار الشمس والذي أرى منه القرية بكاملها، بجدرانها البيضاء والوردية وشرفاتها الخضراء. وكذلك أيضاً تلك الكنيسة على التل الشرقي: لقد احتفظت بجدرانها، وفي دائرة كبيرة حولها تصطف نواويس منبوشة معظمها لم يتحرر بعد من الأرض التي لا زال يشكل جزءاً منها. لقد ضمت أمواتاً. أما الآن، فتنبت عليها القويسة والفجل البري. كنيسة سانت ـ صلصا مسيحية، لكن في كل مرة ننظر فيها من فتحة، تأتي إلينا أنشودة العالم: تلال مزروعة بالصنوبر والسرو، أو البحر الذي يخاتل كلابه البيض على بعد عشرين متراً. التل الذي يحمل سانت ـ صلصا مسطح في قمته، والريح تهب بقوة أشد من خلال الأروقة. تحت شمس الصباح، تتماوج سعادة كبيرة في الفضاء.



ما أفقر من هم بحاجة إلى أساطير. مهمة الآلهة هنا أن تكون متكآت أو صوى في سباق الأيام. أصف وأقول: "هذا أحمر، هذا أزرق، هذا أخضر. هوذا البحر، والجبل، والزهور" . وما حاجتي إلى الكلام عن ديونيسيوس [1] لأقول إنني أحب أن أسحق كرات المصطكى تحت أنفي؟ بل أهو ديميتير [2] صاحب هذا النشيد الذي سأفكر فيه فيما بعد دون قسر: "سعيد من بين الأحياء على الأرض من رأى هذه الأشياء". أن نرى، ونرى على هذه الأرض، كيف ننسى الأمثولة؟ وبدلاً من أسرار ايلوزيس [3]، يكفي أن نتأمل. هنا بالذات، أعرف أنني لن أتقرب أبداً من العالم ما فيه الكفاية. يتوجب علي أن أكون عارياً ثم أن أغوص في البحر، وأنا لا أزال أعبق بروائح الأرض، وأن أغسل هذه في ذاك، وأن أعقد على جلدي العناق الذي يتنهد إليه البحر والأرض شفة إلى شفة منذ زمن سحيق. ومع دخولي في الماء، يكون الانكماش، وصعود دبق بارد صفيق، ثم أغوص والطنين في أذني، وأنفي يسيل وفمي مرٌّ- أسبح وذراعاي مطليتان بالماء تعومان فوق البحر لتهبهما الشمس لوناً ذهبياً وتلتويان بكل ما في عضلاتهما من قوة. وانزلاق الماء على جسمي وعناق ساقيّ اللجب للموج - والأفق غائب. وعلى الشاطئ أتهالك على الرمل، مستسلماً للعالم، منكفئاً في ثقل جسدي وعظمي، صريع الشمس، ألقي، بين الفينة والأخرى، نظرة إلى ذراعي فتنكشف القطرات فوق الجلد الجاف، مع انسياب الماء، عن الزغب الأشقر وغبار الملح.

---

١ . اله الخمر عند اليونان .

٢ . إله الأرض عند اليونان .

٣ . معبد للإله ديميتير قريباً من آثينا . (المترجم)



إنني أفـهم مـا يسـمى هنا بالعـزّ: الحق في الحب إلى مـا لا نـهـاية. ليس في هذا العالم إلا حب واحد. فعناق جسد امرأة هو أيضاً عناق لهذا الفرح الغريب الذي يهبط من السمـاء إلى البحر. بعد قليل، حين سـألقي بنفسي بين الأفسنتين لأدخل أريجه إلى جسدي، سأعي أنني، رغم كل الآراء المسبقة، أحقق حقيقة هي حقيقة الشمس، وستكون أيضاً حقيقة موتي. وبمعنى مـا، إنهـا حـيـاتي التي أقـامـر بهـا هنا، حـيـاة لهـا طعم الحجارة الساخنة، مليئة بتنهدات البحر والزيزان التي أخذت تغني الآن. النسيم رطب والسمـاء زرقـاء. إنني أحب هذه الحـيـاة حبـاً لا تكلف فـيـه وأريد أن أتكلم عنها بحرية: إنها تمنحني كبريائي لكوني إنساناً. ومع ذلك، ما أكثر ما قيل لي هذا: لا شيء يدعو للفخر. بلى، ثمة ما يدعو إلى ذلك: هذه الشمس، هذا البحر، قلبي المتوثب بالشباب، جسدي بما فيه من طعم الملح، والمدى اللامحدود الذي يلتقي فيه الحنان والعزّ في الصفرة والزرقة. فلأقف قوتي وطاقتي على تحقيق ذلك. كل شيء هنا يتركني بكراً، فأنا لا أتخلى عن شيء من ذاتي، ولا أتحجب بأي قناع: يكفيني أن أتعلم بصبر علم الحياة الصعب الذي يفوق كل فنون الحياة.

كنا نعود، قبل الظهر بقليل، من الخرائب إلى مقهى صغير قرب المرفأ. رأسي يطن بصنوج الشمس والألوان. ما أرطبه من استقبال، أعني استقبال القاعة الغارقة في الظل، وكأس النعنع الأخضر البارد ?في الخارج البحر، والطريق المتأججة بالغبار. أحاول، وأنا جالس إلى المائدة، أن ألتقط بين أهدابي الطارفة سطوع السماء البيضاء من الحر المتعدد الألوان. نفرش جميعاً، ووجوهنا مبللة بالعرق، لكن أجسامنا رطبة تحت القماش الخفيف الذي يوشحنا، نفرش التعب السعيد ليوم عرس مع العالم.



الطعـام رديء في هذا المقـهى، لكن الفاكـهـة وافرة ـ وعلى الأخص الدراق الذي نأكله نهشاً، فيسيل سلافه على ذقوننا.

أصغي، وأسناني مطبقة على الدراقة، إلى وجيب دمي يتصاعد حتى أذني، وأنظر بملء عينيّ. إنه صمت الظهر المطبق، على أديم البحر. إن لكل كائن جميل كبرياءه الطبيعية بجماله، والعالم اليوم يترك كبرياءه تنضح من كل الجهات. فلمَ أنكر، أمامه، فرح الحياة، وإن كنت أعرف أنه ليس كل شيء في الحياة فرحاً؟

لا عار على الإنسان أن يكون سعيداً. لكن الأحمق اليوم ملك، وإني لأسمي أحمق من يخاف من المتعة. ما أكثر ما حدثونا عن الكبرياء: أتعرفون، إنها خطيئة إبليس. كانوا يصيحون: خذ حذرك، فسوف تهلك وأنت في عنفوان الحياة. ثم علمت بالفعل أن قدراً من الكبرياء... لكنني في أويقات أخرى لا أستطيع منع نفسي من المناداة بكبرياء الحياة التي يتآمر العالم بأسره على منحي إياها. ففي تيبازه، عندما أقول: "أرى" فكأني أقول" "أؤمن". وأنا لا أصر على إنكار ما تستطيع يدي أن تلمسه وشفتاي أن تداعباه. إنني لا أشعر بالحاجة إلى أن أصنع من ذلك آية فنية، بل إلى أن أروي، وهذا أمر آخر. تيبازه تبدو لي كتلك الشخصيات التي توصف لتدل دلالة غير مباشرة على وجهة نظر عن العالم. إنها، مثلها، تشهد، وبرجولة. إنها اليوم بطلة قصتي، ويخيل إلي أن نشوتي بمداعبتها ووصفها لن تكون لها نهاية. ثمة وقت للحياة ووقت للشهادة على الحياة. وثمة أيضاً وقتٌ للخلق، وهذا أقل طبيعية. يكفيني أن أعيش بكل جسدي وأن أشهد بكل قلبي، أن أعيش تيبازه، وأشهد، ثم ستأتي الآية الفنية فيما بعد. إن في هذا لحرية.





لم أبق قط في تيبازه أكثر من نهار واحد. فهناك دوماً لحظة تشعر فيها أنك رأيت مشهداً فيها أكثر مما ينبغي، تماماً كما أن رؤيته بما فيه الكفاية تقتضي وقتاً طويلاً. إن الجبال، السماء، البحر، لهي كأوجه تكتشف فيها الجذب أو العظمة، لكثرة ما تنظر بدل أن ترى. لكن كل وجه يجب أن يتحمل، لكي يكون معبراً، بعض التجديد، وإننا لنشكو من أننا سئمنا بسرعة كبيرة حين كان يجب أن نعجب من أن العالم يبدو لنا جديداً بمجرد أنه نُسي.

عند المساء، كنت ألجأ إلى ركن من الحديقة أكثر تنظيماً، مهدت أرضه إلى مرج، على حافة الطريق العام. كان الفكر يهدأ، والجسم المسترخي يتلذذ بالصمت الداخلي الذي يلد من الحب المرتوي، عند الخروج من جلبة العطور والشمس، في نسيم المساء العليل. كنت قد جلست على مقعد. ورحت أنظر إلى الريف يزداد جمالاً وتناسقاً مع أفول النهار. كنت مشبعاً. كانت فوقي شجرة رمان تتدلى براعم زهرها، مكمومة مضلعة كقبعات صغيرة مطبقة تضم أمل الربيع كله. كان خلفي عبيثران، ولم أكن أشعر به إلا من عطر الخمر. كانت هناك تلال تلوح بين الأشجار، وإلى بعيد شريط من البحر تجثم فوقه السماء بكل حنانها، كشراع ساكن. كان في قلبي فرح غريب، فرح لا يتأتى إلا من الضمير المرتاح. ثمة شعور يعرفه الممثلون حين يدركون أنهم أدوا دورهم كما يجب، أي حين يدركون، بالمعنى الأدق، أنهم طابقوا حركاتهم مع حركات الشخصية الخيالية التي يجسدونها. فلكأنهم دخلوا بمعنى ما في رسم أعد مقدماً فجعلوه بضربة واحدة يعيش ويخفق بقلبهم. كان هذا على وجه التحديد ما أشعر به: لقد أديت دوري على أتم ما يرام. لقد قمت



بمهنتي كإنسان، ولم تكن ممارستي الفرح طوال نهار طويل تبدو لي نجاحاً استثنائياً، بل تحقيقاً منفعلاً لحالة تحتم علينا، في بعض الظروف، أن نكون سعداء. عندئذ نهتدي إلى العزلة ثانية، لكنها عزلة الارتواء هذه المرة.

* * *

الأشجار الآن عامرة بالعصافير. الأرض تتنهد ببطء قبل أن تتسربل بالظلمة. عما قريب، مع النجمة الأولى، سيرخي الليل سدوله على مسرح العالم. وستنكفئ آلهة النور الوضاءة إلى موتها اليومي. ولكن آلهة أخرى ستأتي. وهي، وإن كانت أشد إظلاماً، قد ولدت وجوهها التالفة مع ذلك في قلب الأرض.

كانت تكسُّر الأمواج المتواصل على الرمل يصلني، الآن على الأقل، من خلال فضاء رحب يرقص فيه غبار الطلع الذهبي. البحر، الريف، الصمت، عطور هذه الأرض، كنت أمتلئ بحياة أريحية وأعض على ثمرة العالم الذهبية، وقد بلبلني الإحساس بسلافها السكري القوي يسيل على شفتي. كلا، لم تكن الأهمية لي ولا للعالم، بل فقط للتوافق والصمت الذي يولد حبي للعالم، حب أشفق عليه من المطالبة به لنفسي وحدي، أدرك وأفخر بأنني أتقاسمه مع عرق بكامله، عرق ولد من الشمس والبحر، عرق حي ومعطار، يستمد عظمته من بساطته ويوجه ابتسامته المتواطئة، وهو منتصب على الشطآن، إلى ابتسامة سماواته الوضيئة.



الريح في جميلة

ثمة أمكنة يموت فيها الفكر لتولد حقيقة هي نفي له بالذات. فحين ذهبت إلى جميلة،كان هناك ريح وشمس، لكن هذه قصة أخرى. ما يجب أن أقوله بادئ ذي بدء هو أنه كان يخيم عليها صمت كبير ثقيل لا صدع فيه ـ شيء ما أشبه بتوازن ميزان. صيحات طيور، الصوت المكتوم لناي ذي ثلاث فتحات، وطء ماعز، لجبة قادمة من السماء، كثير من هذه الأصوات التي تطبع هذه الأمكنة بالصمت والأسى. بين الفينة والفينة، كان اصطفاق جاف، وزعقة حادة، يشيران إلى طيران طير جاثم بين الصخور. كل درب مسلوك، الممرات بين أشلاء البيوت، الشوارع الكبيرة المبلطة تحت الأعمدة الساطعة، الساحة العريضة بين قوس النصر والمعبد على رابية، كل شيء يفضي إلى الشعاب التي تطوق جميلة من كل الجهات، كلعبة ورق مبسوطة على سماء لا حدود لها. وأجد نفسي هنا متحفزاً، مجابهاً الحجارة والصمت كلما تقدم النهار وتعاظمت الجبال واستحال لونها بنفسجياً. لكن الريح تهب على هضبة جميلة. وفي هذا الخليط الكبير من الريح والشمس الذي يغرق الخرائب بالنور، يتكون شيء ما يمنح الإنسان إيقاع اتحاده بالعزلة وصمت المدينة الميتة.

الذهاب إلى جميلة يقتضي وقتاً طويلاً. إنها ليست مدينة تتوقف



فيها ثم تتجاوزها. إنها لا تفضي إلى أي جهة ولا تنفتح على أي بلد. إنها مكانٌ يرجع منه. المدينة الميتة تقع عند منتهى طريقٍ طويل متعرج يبدو وكأنه يعد بها عند كل منعطف من منعطفاته، فيبدو لي لذلك أكثر طولاً.

وحين يبرز أخيراً، على هضبة باهتة الألوان، هيكل جميلة العظمي المائل إلى الصفرة كغابة من رفات الموتى المدفون بين جبال عالية، فإن جميلة ترمز عندئذ إلى أمثولة الحب والصبر التي يمكنها وحدها أن تقودنا إلى قلب العالم النابض. هناك، بين بضع أشجار، والعشب اليابس، تحمي جميلة نفسها بكل جبالها وبكل صخورها، من الإعجاب المبتذل، من الافتتان، أو من ألعاب الأمل.

لقد همنا طوال النهار في هذه العظمة القاحلة. وأخذت الريح، التي كنا لا نكاد نحس بها في بداية بعد الظهر، تتعاظم مع مر الساعات وتملأ المشهد كله. كانت تهب من فجوة بين الجبال، بعيداً نحو الشرق، وتتدفق من أقصى الأفق، وتأتي لتثب وثباً بين الصخور وتحت الشمس. كانت تصفر بقوة، بلا توقف، من خلال الخرائب، وتحوم في دائرة من الصخور والتراب، وتغرق أكوام الحجارة المنقوشة، وتطوق كل عمود بنفيحها، وتنبسط في صيحات متصلة على ساحة الملعب المنفتحة تحت السماء. كنت أشعر أن الريح تصفقني كصارية سفينة. كان جلدي، بأحشائي المجوفة وبعيني المحترقتين وشفتي المشققتين، يجف جفافاً شعرت معه أنه لم يعد جلدي. بهذا الجلد كنت، في الماضي، أفك ألغاز كتابة العالم. كان العالم يرسم عليه شارات حنانه أو غضبه، ويدفئه بلهاث صيفه، أو يعضه بأسنان حقيقية. لكن الآن وقد لفحتني الريح



طويلاً، وهزتني طوال ساعة ونيف من الزمن، ودوختني مقاومتها، فإنني بت لا أعي الرسم الذي يخطه جسمي. كنت مصقولاً بالريح، مهترئاً حتى الروح كالحصاة التي صقلها المد والجزر. كنت بعضاً من تلك القوة التي أعوم بقدرتها، ثم القسم الأكبر منها، ثم كلها أخيراً، غير مميز وجيب دمي من ضربات قلب الطبيعة الكبير المرنان، ذاك القلب الماثل في كل مكان. كانت الريح تنحتني على صورة العري المتأجج الذي يحيط بي. وكان عناقها الجريح يهبني، أنا الصخرة بين الصخور، عزلة عمود أو شجرة زيتون تحت سماء الصيف.

كان هذا الحمام العنيف من الشمس والريح يستنفد قواي الحيوية كلها. يكاد لا يبقى فيّ شيء إلا خفقان أجنحة ترفٌ، حياة تشكو، تمرد فكر واهن. عما قريب، أتوزع بين أركان العالم الأربعة، ناسياً، منسياً من نفسي، فأصبح هذه الريح وفي الريح، هذه الأعمدة وهذا القوس، هذه البلاطات اللاظية وهذه الجبال الشاحبة حول المدينة القاحلة. لم أشعر قط، فيما مضى، بانفصالي عن ذاتي وبحضوري في العالم في آن واحد، كما أشعر الآن.

أجل، إنني حاضر. وما يذهلني في هذه الهنيهة أنني لا أستطيع أن أذهب إلى أبعد من ذلك. مثل رجل محكوم بالسجن المؤبد ـ وكل شيء حاضر أمامه. لكن أيضاً مثل رجل يعرف أن الغد سيكون مشابهاً وكذلك سائر الأيام. ذلك أن وعي الإنسان حاضره، معناه ألا يعود ينتظر شيئاً. وإذا كانت هناك مشاهد هي عبارة عن حالات نفسية، فهي أكثر المشاهد ابتذالاً. كنت أسعى على امتداد هذا البلد وراء شيء ما ليس لي، بل منه، كطعم الموت المشترك بيننا. فكانت الهواجس، بين الأعمدة



ذات الظلال الماثلة الآن، تذوب في الهواء كطيور جريحة، ويحل مكانها هذا الصحو الجدب. إن القلق يولد من قلب الأحياء. لكن الهدوء سيحجب هذا القلب الحي: هوذا صحوي كله. وكلما تقدم النهار، واختنقت الأصوات والأنوار تحت الرماد الذي يسقط من السماء، أشعر بنفسي، وقد خلوت لذاتي، أنني بلا دفاع في مواجهة القوى الوئيدة التي تقول لا في داخلي.

قليل من الناس يفهم أن هناك رفضاً لا علاقة له بالعزوف والتخلي. ماذا تعني هنا ألفاظ المستقبل، وتحسن المعيشة، والوضع الاجتماعي؟ ماذا يعني تقدم القلب؟ إذا كنت أرفض بعناد كل ما في العالم من "فيما بعد"، فهذا لأنني أود ألا أتخلى عن غناي الحاضر. لا يعجبني أن أؤمن بأن الموت يفضي إلى حياة أخرى؛ إنه بالنسبة لي باب مغلق. لا أقول إنه خطوة يجب أن نخطوها، بل إنه مغامرة فظيعة وقذرة. إن كل ما يُقترح علي يسعى إلى أن يخفف عن الإنسان وطأة حياته، وأمام الطيران الثقيل للطيور الكبيرة في سماء جميلة، أطالب على وجه التحديد بثقل معين للحياة و أحصل عليه. أن أكون بكل خلاياي في هذا الهوى السلبي، ولن يعود لأي شيء آخر من علاقة بي. إن فيَّ من الشباب ما لا يمكنني معه أن أتكلم عن الموت. لكن يخيل إلي أنه إذا كان علي أن أفعل ذلك، فإنما هنا سأجد الكلمة المضبوطة التي تعبر، بين الهول والصمت، عن اليقين الواعي بموت بلا أمل.

إن الإنسان يعيش مع بضع أفكار أليفة. فكرتان أو ثلاث، وحسب العوالم والبشر الذين يلتقي بهم، يصقلها ويبدلها. لابد من عشر سنين كي تكون للإنسان فكرة خاصة به فعلاً - يستطيع أن يتكلم عنها.



بالطبع، في هذا شيء من التشبيط. لكن الإنسان يربح منه تآلفاً معيناً مع وجه العالم الجميل. فقد كان، حتى الآن، يراه وجهاً لوجه. ولا بد له من أن يخطو خطوة جانبية لينظر إلى وجهه الجانبي. إن إنساناً شاباً هو من ينظر إلى العالم وجهاً لوجه. فالوقت لم يتسن له ليصقل فكرة الموت أو العدم الذي قد عرك هوله مع ذلك. لا بد أن يكون هذا هو الشباب: هذا الاختلاء القاسي مع الموت، هذا الخوف الجسماني للحيوان الذي يحب الشمس. وبخلاف ما يقال، بهذا الصدد على الأقل، فإن الشباب لا يتعلل بالأوهام. فهو لم يتح له لا الوقت ولا الورع ليبني قصور الأوهام. ولست أدري لماذا، أمام هذا المشهد المتخدر، أمام هذه الصرخة الحجرية المأتمية والاحتفالية، أمام جميلة اللاإنسانية في مهبط الشمس، أمام موت الأمل والألوان هذا، لست أدري لماذا كنت واثقاً أن على الرجال الجديرين بهذا الاسم، عند بلوغهم خاتمة الحياة، أن يعودوا إلى تلك الخلوة، أن ينكروا الأفكار القليلة التي كانت أفكارهم، ويستعيدوا البراءة والحقيقة التي تسطع في نظرة البشر القدامى تجاه مصيرهم. إنهم يعودون إلى شبابهم مجدداً، لكن بعناقهم الموت. ولا أحقر من المرض في هذا الصدد. إنه دواء ضد الموت. إنه يمهد له. إنه يخلق نوعاً من المران، مرحلته الأولى الاشفاق على الذات. إنه يدعم الإنسان في جهده الكبير، أعني جهده في التهرب من يقينه بأنه سيموت بأسره. لكن جميلة... وأشعر عندئذ أن التقدم الحقيقي، الوحيد، للحضارة، التقدم الذي يتعلق به أحد البشر من زمن لآخر، هو أن نبدع ميتات واعية.

إن ما يدهشني دوماً هو فقر أفكارنا عن الموت، مع أننا نشيطون



جداً في قتل سائر المواضيع بحثاً. إنه خير أو إنه هو شر. إنني أخاف منه أو أناديه (كما يقولون). لكن هذا يثبت لنا أيضاً أن كل ما هو بسيط يتجاوزنا. ما الأزرق وما نفكر عن الأزرق؟ إنها الصعوبة نفسها بالنسبة للموت. نحن لا نعرف أن نتناقش عن الموت وعن الألوان. ومع ذلك، فإن المهم هو هذا الرجل الماثل أمامي، الثقيل كالتراب الذي يرمز إلى مستقبلي مقدماً. لكن أأستطيع أن أفكر به حقاً؟ أقول في نفسي: سأموت، لكن هذا لا يعني شيئاً، لأنني لا أتوصل إلى الاعتقاد به ولا يمكن أن تكون لي إلا تجربة موت الآخرين. لقد رأيت أناساً يموتون. رأيت، على الأخص، كلاباً تموت. وكان لمسها هو الذي يبلبلني. أفكر عندئذ: الأزهار، الابتسامات، الشهوات إلى المرأة، وأفهم أن كل رعبي من الموت يكمن في غيرتي على الحياة. إنني غيور ممن سيعيشون، وممن سيكون للأزهار وللشهوات إلى المرأة معنى من لحم ودم بالنسبة لهم. إنني حسود، لأنني أحب الحياة حباً جماً لا أستطيع معه إلا أن أكون أنانياً. ما شأني والأبدية! أستطيع أن أكون هنا، راقداً ذات يوم، وأسمع نفسي أقول: "أنت قوي وإني مدين لك بصدقي: أستطيع أن أقول لك إنك ستموت". أن أكون هنا، وكل حياتي بين يدي، وكل خوفي بين أحشائي، وفي عيني نظرة بلهاء. أما غير ذلك فماذا يعني: أمواج من الدم تأتي لتضرب صدغي، ويخيل إلي أنني سأسحق كل شيء حولي.

لكن البشر يموتون رغم أنفهم، رغماً عن ديكوراتهم. يقال لهم: "حين ستشفى..."، ويموتون. لا أريد هذا. ذلك أنه إذا كانت هناك أيام تكذب فيها الطبيعة، فهناك أيام تصدق فيها القول. جميلة تصدق القول هذا المساء، وبأي جمال حزين وملح! أما عني أنا فلا أريد، أمام هذا



العالم، لا أن أكذب ولا أن يكذب علي. أريد أن أحمل صحوي حتى الثمالة وأن أنظر إلى نهايتي بكل إسراف غيرتي وسعادتي. وبمقدار ما أنفصل عن العالم أخاف من الموت، وأخاف منه أيضاً بمقدار ما أرتبط بمصير البشر الذين يعيشون بدلا من أن أتأمل السماء التي تدوم أبداً. إننا بإبداعنا ميتات واعية، نقرب المسافة التي تفصلنا عن العالم، وندخل بلا فرح في الإنجاز الواعي لصور نشوى عن عالم أضعناه إلى الأبد. والنشيد الحزين لتلال جميلة يعمق في روحي مرارة هذه الحقيقة.

* * *

نرتقي، إذ يقبل المساء، المنحدرات التي تفضي إلى القرية، ونستمع، إذ نعود أدراجنا، إلى شروح: "هنا كانت المدينة الوثنية. وهذا الحي الذي يمتد خارج الأراضي هو حي المسيحيين فيما بعد....". أجل، هذا صحيح. لقد تعاقب هنا بشر ومجتمعات. وطبع فاتحون هذا البلد بحضارتهم، حضارة ضباط الصف. كانت لهم فكرة دنيئة وسخيفة عن العظمة، وكانوا يقيسون عظمة إمبراطوريتهم بالمساحة التي تحتلها. أما المعجزة فهي أن خرائب حضارتهم هي نفي لمثلهم الأعلى بالذات. ذلك أن هذه المدينة التي لم يبق منها إلا هيكلها العظمي لا ترسم على أديم السماء، إذا ما نظر إليها من شاهق في المساء المتلاشي ومن خلال طيران اليمام الأبيض حول قوس النصر، شارات الفتح والطموح. إن العالم يقهر دوماً في النهاية التاريخ. وهذه الصيحة الحجرية العظيمة التي تطلقها جميلة بين الجبال والسماء والصمت، أعرف ما فيها من شعر، صحو، لا مبالاة، الامارات الحقيقية لليأس أو للجمال. إن القلب لينقبض أمام هذه العظمة التي أخذنا نغادرها. جميلة تبقى خلفنا بماء سمائها الحزين،



ونشيد طير آتٍ من الجانب الآخر للهضبة، وانسياب مفاجئ سريع لماعز على سفوح التلال، والوجه الحي لإله ذي قرنين يتسنم أحد الهياكل، في الغسق المتراخي ذي الرنين.



الصيف في الجزائر

إن الحب الذي تتبادله مع مدينة هو على الأغلب حب سري. إن مدناً كباريس، براغ، وحتى فلورنسا، لهي مدن منغلقة على نفسها وتحدد بالتالي العالم الخاص بها. لكن الجزائر، ومعها بعض الأماكن الممتازة كالمدن التي على البحر، تنفتح في السماء مثل فم أو جرح. وما قد تحبه في الجزائر هو ما يعيش منه جميع الناس: البحر عند منعطف كل شارع، ثقل معين للشمس، جمال العِرْق. وكما هو الحال دوماً، فإن في هذا العهر وفي هذه الأضحية لعطراً أكثر سرية. ففي باريس، قد يأخذك الحنين إلى الفضاء واصطفاق الأجنحة. أما هنا، على الأقل، فالإنسان مفعم، واثق من رغباته، فيستطيع عندئذ أن يقدر ثرواته.

لا بد للمرء بدون شك أن يعيش حقبة طويلة من الزمن في مدينة الجزائر ليفهم أي جفاف يمكن أن يحدثه الإفراط في الثروات الطبيعية. فلا شيء هنا لمن يريد أن يتعلم، أو يتثقف، أو يرتقي. إن هذا البلد بدون دروس. إنه لا يعد بشيء ولا يحمل على الأوهام. إنه يكتفي بأن يعطي، لكن ما أعظم أريحيته في العطاء. إنه يهب نفسه بأسره إلى العين وإنك لتعرفه ما إن تتمتع به. إن ملذاته لا دواء لها، وافراحه تظل بلا أمل. وما يتطلبه هو نفوس نيرة، أي لا تقبل عزاء. إنه يطلب أن يقوم الإنسان



بفعل صحو مثلما يقوم بفعل إيمان. يا للبلد الفريد الذي يهب الإنسان الذي يغذيه عظمته وبؤسه في آن واحد! وليس من المدهش أن يكون الغنى الشهواني الذي يتمتع به إنسان حساس من هذا البلد متوافقاً مع منتهى التجرد. ليس ثمة من حقيقة لا تحمل معها مرارتها. فأي عجب إذن إذا كنت لا أحب وجه هذا البلد أكثر ما أحبه إلا وسط أبنائه الأكثر فاقة!

إن البشر يجدون هنا طوال شبابهم حياة على قدر جمالهم. وبعد ذلك يكون الأفول والنسيان. لقد راهنوا على الجسد، لكنهم كانوا يعرفون أنهم خاسرون. إن كل شيء في الجزائر، بالنسبة لمن هو شاب مليء بالحياة، ملجأ وذريعة للانتصارات: الخليج، الشمس، رأرأة ألوان الأسطحة الحمراء والبيضاء من ناحية البحر، الأزهار والملاعب، الصبايا بسيقانهم البضة. أما من فقد شبابه، فلا يجد شيئاً يتشبث به أو مكاناً تستطيع الكآبة فيه أن تهرب من نفسها. هناك أسطحة إيطاليا، أديرة أوروبا، أو وشي التلال البروفانسية، وغيرها من الأمكنة التي يستطيع فيها الإنسان أن يهرب من إنسانيته ويستسلم بعذوبة إلى ذاته. لكن كل شيء هنا يتطلب العزلة ودم شباب الرجال. كان غوته، وهو يحتضر، ينادي النور، وهذه كلمة تاريخية. أما في بلكور وباب الواد، فإن الشيوخ الجالسين في صدر المقاهي، يستمعون إلى تبجحات الفتيان بشعورهم الملصوقة.

هذه البدايات وهذه النهايات، هي ما يقدمه لنا الصيف في الجزائر. المدينة تقفر خلال هذه الأشهر. لكن الفقراء يلبثون فيها، وكذلك



والسماء. ومع الأوائل، ننزل معاً نحو المرفأ وكنوز الإنسان: سخونة الماء وأجساد النساء السمر. وعند المساء يعودون وقد اكتظوا من هذه الثروات، إلى القماشة المشمعة ومصباح الزيت، وهما كل ما لديهم من ديكور في حياتهم.

* * *

في الجزائر، لا يقال " لنأخذ حماماً"، بل "لنتنعَّم بحمام". لا داعي للالحاح. إنهم يسبحون في المرفأ ويذهبون للاستراحة على عوامات. حين يمرون بقرب عوامة عليها صبية جميلة، يصيحون برفاقهم: "أقول لك إنها نورس". إن هذه الأفراح صحية. ولا بد من الإيمان بأنها تشكل المثل الأعلى لهؤلاء الفتيان ما دام معظمهم يتابع هذه الحياة أثناء الشتاء، ويتعرى، ظهر كل يوم، تحت الشمس لتناول غذاء طفيف. وليس ذلك لأنهم قرؤوا المواعظ المملة لأنصار العري، أولئك المبالغين في أهمية الجسد (هناك فلسفة للجسد لا تقل إثارة للغيظ عن فلسفة الروح). بل لأنهم "على ما يرام تحت الشمس". ولعلنا لن نستطيع أبداً أن نعلي من أهمية هذه العادة بالنسبة لعصرنا بما فيه الكفاية. فلأول مرة منذ ألفي عام، وضع الجسد عارياً على شطآن. ومنذ عشرين قرناً والبشر يحاولون أن يضفوا طابع الحشمة على السفاهة والسذاجة اليونانيتين، وينقصوا من شأن الجسد، ويعقدوا الملبس. أما اليوم، ورغم هذا التاريخ، فإن سباق الفتيان على شطآن البحر المتوسط إن هو إلا استمرار للحركات العظيمة لرياضيي ديلوس. وأنت إن عشت هكذا قرب الأجساد وبالجسد، فإنك ستتبين أن له درجاته، وحياته، وقد أجازف بالقول بأن له لغوه الخاص



وسيكولوجيته الخاصة[1]. إن لتطور الجسم كتطور الروح تاريخه، وانتكاساته، وتقدمه، وعجزه، مع هذا الفرق الطفيف: اللون. حين تذهب إلى مسابح المرفأ أثناء الصيف، تدرك أن جميع الأجسام تنتقل انتقالاً متوافقاً من الأبيض إلى الذهبي، ثم إلى الأسمر، وفي النهاية إلى لون تبغيّ هو منتهى الجهد الذي يستطيع الجسم أن يبذله في تحوله. ويهيمن حي القصبة على المرفأ بانعكاس مكعباته البيضاء، فتبدو الأجسام وكأنها تبسط نسيجاً نحاسي اللون على صفحة الماء التي استحالت خلفية بيضاء ساطعة للمدينة العربية. وكلما تقدم شهر آب، واحتدت الشمس، ازداد بياض المنازل بهراً للأبصار واكتست البشرات بحرارة اشد دكنة. فكيف لا نتحد عندئذ بهذا الحوار بين الصخر والجسد اتحاد الشمس والفصول؟ لقد انقضت فترة الصباح كلها في الغطس، وفي أريج الضحكات بين فوارات الماء، وفي تجديف طويل حول المراكب الحمر والسود (المراكب التي تأتي من النرويج والتي تفوح منها كل عطور الخشب، والمراكب التي تقدم من ألمانيا مليئة برائحة الزيوت، والمراكب التي تنتقل بين مدن الساحل وتعبق بالخمر والبراميل العتيقة). وفي الساعة التي تطفح فيها الشمس من كل زوايا السماء، يعود بنا الزورق

---

١ . هل أتساخف وأقول إنني لا أحب الطريقة التي يعظم بها أندريه جيد الجسد ؟ إنه يطلب إليه أن يردع شهوته ليجعلها أكثر حدة . وهكذا يقترب ممن يطلق عليهم ، في لغة البيوت العمومية ، اسم المعقدين أو "ذوي الأفكار" . والمسيحية أيضاً تريد أن تعطل الشهوة . لكنها ترى في ذلك ، وهذا أكثر طبيعية ، إماتة . أما رفيقي فانسان الذي يمتهن صنع البراميل والذي فاز ببطولة السباحة ، ، فإن له عن الأشياء نظرة أصفى أيضاً . إنه يشرب حين يعطش ، وإذا اشتهى امرأة سعى إلى النوم معها ، وسيتزوجها إذا أحبها (لم يحدث هذا بعد) . وبعد ذلك ، يقول دوماً : "الحال تتحسن" . وهذه العبارة تلخص بدقة كل ما يمكن أن نمدح به الارتواء .



البدائي البرتقالي، محملا بالأجسام السمر، في سباق مجنون. وحين ينقطع فجأة الوجيب الإيقاعي للمجداف المزدوج ذي الأجنحة التي بلون الثمار، وننساب ملياً على الماء الهادئ في حوض المرفأ، كيف لا أكون واثقاً أنني أقود عبر المياه الملساء شحنة صهباء من آلهة أتعرف فيهم أخوتي؟

لكن الصيف يبسط لنا، في الطرف الآخر من المدينة، ثرواته الأخرى المضادة: أعني لحظات صمته وسأمه. إن لحظات الصمت هذه ليست كلها ذات نوعية واحدة، فمنها ما يولد من الظل ومنها ما يولد من الشمس. فهناك صمت الظهيرة في ساحة الولاية. وفي ظل الأشجار التي تحفّها، يبيع عرب كؤوساً من شراب الليمون المثلج، المعطر بزهر البرتقال، بخمسة فلوس. ويخترق الساحة المقفرة نداؤهم: "بارد، بارد". وبعد صياحهم يخيم الصمت من جديد تحت الشمس: يتقلقل الثلج في قربة البائع، وأسمع قرقرته الخافتة. وهناك صمت القيلولة. ففي شوارع "البحرية"، وأمام دكاكين الحلاقين الدرنة، يمكن للإنسان أن يشعر بهذا الصمت من طنين الذباب الرخيم خلف ستائر الخيزران الأجوف. وفي غير هذا المكان، في مقاهي القصبة المغربية، يكون الجسم هو الصامت، فلا يستطيع أن ينتزع نفسه من هذه الأماكن، ولا أن يهجر قدح الشاي ويعود إلى الزمن مع ضجيج دمه. لكن هناك على الأخص صمت أماسي الصيف.

هذه اللحظات الوجيزة التي يغور فيها النهار في الليل، هل يجب أن تكون عامرة بالإشارات والنداءات السرية كي تكون الجزائر مرتبطة في نفسي إلى هذا الحد بها؟ حين أكون لبعض الوقت بعيداً عن هذا



البلد، أتخيل أغساقه وكأنها وعود بالسعادة. ثمة دروب بين أشجار المصطكى والزيتون، على التلال المشرفة على المدينة. وإنما إليها يتجه قلبي آنذاك. إنني أرى منها عصائب من الطيور السوداء تحلق في الأفق الأخضر. وينبسط شيء ما في السماء، التي انقشعت عنها شمسها فجأة. يتمطى شعب صغير كامل من السحب الحمراء ويتلاشى في الفضاء. سرعان ما تلمع النجمة الأولى وهي تتشكل وتتصلب في كثافة السماء. ثم على حين غرة، يقبل الليل مفترساً. يا لأمسيات الجزائر الهاربة، أي روعة فيها إذن لتطلق في نفسي أشياء كثيرة من عقالها؟ وهذه العذوبة التي تتركها على شفتي: إنها تتلاشى في الليل قبل أن يتسنى لي الوقت لأملّ منها. أهذا هو سر بقائها؟ إن حنان هذا البلد شجي وخفي. لكن القلب يستسلم له بكل خلاياه، حين يظهر نفسه. المرقص، على شاطئ بادوفاني، مفتوح كل الأيام. وفي هذه العلبة المستطيلة الكبيرة المفتوحة على البحر بكل طولها، يرقص شبان الحي الفقراء حتى المساء. غالباً ما كنت أنتظر هنا دقيقة فريدة. أثناء النهار، تتولى حماية القاعة مصاريع من الخشب مسطحة، ترفع حين تختفي الشمس. آنذاك تمتلئ القاعة بنور أخضر غريب، يولده تلاحم السماء والبحر. وإذا كنت جالساً بعيداً عن النوافذ، فإنك لا ترى إلا السماء، وأوجه الراقصين التي تمر بالتناوب، كأشباح صينية. أحياناً، يعزف الفالس، فتدور الأوجه السوداء، على الخلفية الخضراء، كتلك الرسوم المقصوصة التي تلصق على قرص الحاكي. ثم يأتي الليل بسرعة، ومعه الأضواء. لكني لن أستطيع أن أعبر عما أجد من سر وإيحاء في



هذه اللحظة الخاطفة. إنني لأذكر على الأقل فتاة طويلة بديعة رقصت طوال العصر. كانت تضع طوقاً من الياسمين فوق ثوبها الأزرق الملتصق بجسمها، والندي بالعرق من صلبها إلى ساقيها. كانت تضحك وهي ترقص وترمي برأسها إلى الوراء. وحين كانت تمر قرب الطاولات، كانت تترك خلفها رائحة مزيجاً من الأزهار والجسد. وحين أقبل المساء، بت لا أرى جسمها الملتصق بمراقصها، لكن كانت تدور على أديم السماء بقع متعاقبة من الياسمين الأبيض والشعر الأسود. وحين كانت تدفع إلى الخلف بصدرها الممتلئ، كنت أسمع ضحكها وأرى الوجه الجانبي لمراقصها ينحني فجأة. إنني لمدين لهذه الأماسي بالفكرة التي أكونها عن البراءة. وأما هذان المخلوقان المشحونان بالعنف، فقد تعلمت ألا أفرق بينهما وبين السماء التي تحوم فيها شهواتهما.

* * *

في دور سينما الأحياء، في مدينة الجزائر، تباع أحياناً أقراص من النعنع، محفوراً عليها بالأحمر كل ما هو ضروري لولادة الحب: أسئلة: "متى ستتزوجينني؟"، "هل تحبينني؟"، وأجوبة: "إلى حد الجنون"، "في الربيع". وبعد أن يمهد الفتى الميدان، يدفع بها إلى جارته التي تجيب بالمثل أو تكتفي بتجاهله. ولقد عقد أكثر من قران، في بلكور على هذا النحو، واتحدت أكثر من حياة مع غيرها بتبادل سكاكر النعنع. وهذا يصور أحسن تصوير الشعب الطفل لها البلد.

ربما كانت علامة الشباب هي الميل العظيم إلى السعادات السهلة. لكن الشباب إنما هو على الأخص استعجال للحياة يقارب الإسراف. وفي



بلكور، كما في باب الواد، يتزوج الشبان باكراً. إنهم يشتغلون قبل الأوان بكثير ويستوعبون في عشر سنين تجربة حياة إنسانية كاملة. إن عاملاً في الثلاثين من العمر يكون قد قامر بكل أوراقه. إنه ينتظر النهاية بين زوجته وأطفاله. لقد كانت حظوظه من السعادة مفاجئة لا ترحم. وكذلك كانت حياته. وهكذا نفهم أنه ولد في هذا البلد الذي يُعطى فيه كل شيء ليُسترجع من جديد. وفي هذه الوفرة وهذا السخاء، تأخذ الحياة منحى الأهواء العظيمة، المفاجئة، العاصفة، السخية. إنها ليست معدة للبناء، بل للاحتراق. إذن لا مجال للتفكير ولتحقيق التقدم. إن مفهوم الجحيم، على سبيل المثال، ليس إلا مزحة محببة هنا. إن أمثال هذه التخيلات لا يسمح بها إلا للمتزمتين في الفضيلة. وأعتقد عن حق أن الفضيلة كلمة لا معنى لها في الجزائر قاطبة. ليس لأن هؤلاء البشر يفتقرون إلى مبادئ، فإن لهم أخلاقهم الخاصة بهم. إن الفرد منهم لا يقصِّر في حق أمه. ويوفر الاحترام لزوجته في الشوارع. ويحيط المرأة الحامل بعين الرعاية. ولا يهاجم خصماً له مستعيناً برفيق له، لأن "في هذا مكراً". ومن لا يحفظ هذه الوصايا الأساسية، "لا يكون رجلاً"، وهكذا تسوى القضية. هذا يبدو لي عدلاً وحقاً، وكثيرون منا لا يزالون يراعون عن غير وعي قانون الشارع هذا، وهو القانون المنزه الوحيد الذي أعرف. لكن أخلاق الحانوتي المستكين مجهولة هنا في الوقت نفسه. لقد رأيت حولي دائماً وجوهاً تشفق عند مرور رجل يحدق به شرطة وقبل أن يعرفوا أسرق الرجل، أم قتل أمه، أم أنه مجرد شخص غير امتثالي، يقولون: "المسكين"، أو يقولون بشيء من الإعجاب: "إن هذا لقرصان".



ثمة شعوب ولدت للكبرياء والحياة. إنها الشعوب التي تتعهد بالرعاية ميلاً فريداً إلى السأم. كما أن شعور الموت عندها هو أكره المشاعر. وإذا ما استثنينا فرح الحواس، فإن تسليات هذا الشعب بليدة. إن جمعيات الشغيلة ومآدب "الوداديات" وسينما الثلاثة فرنكات والأعياد البلدية تكفي منذ سنين للترفيه عمن تجاوز الثلاثين من العمر. إن أيام الآحاد في الجزائر هي من أكأب الأيام. فكيف يمكن لشعب بلا روح أن يخفي بالأساطير هول حياته العميق؟ إن كل ما يمت بصلة إلى الموت هنا سخيف أو بغيض. إن هذا الشعب الذي يعيش بدون دين وبدون أصنام يعيش وحيداً بعد أن عاش جماعة. إنني لا أعرف مكاناً أبشع من مقبرة شارع "برو" تجاه مشهد من أجمل مشاهد العالم. إن أكداساً من الذوق الفاسد بين أطر سوداء تكشف عن كآبة رهيبة في هذه الأمكنة التي يسفر فيها الموت عن وجهه الحقيقي. تقول النذور التي على شكل قلب: " كل شيء ينقضي إلا الذكرى". وجميعها تلح على ذلك الخلود المضحك الذي يقدمه لنا بثمن بخس قلب من أحبونا. إنها العبارات نفسها التي يوصف بها اليأس بكل أنواعه. إنها تخاطب الميت بضمير المخاطب: "ذكرانا لن تتخلى عنك". فيا لها من مداهنة مفجعة هذه المداهنة التي تنسب جسماً ورغبات إلى ما هو على أفضل الحالات سائل أسود. وفي موضع آخر، وسط وفرة مذهلة من الزهور والطيور الرخامية، يرتفع هذا النذر الجسور: "لن يبقى قبرك أبداً بدون زهور". ولكن سرعان ما يسكن الروع: إذ لا يعني هذا الكلام إلا باقة من الجصّ المذهبّ، هي اقتصادية جداً بالنسبة لوقت الأحياء (كتلك الزهور المسماة



بالخالدات والمدينة باسمها الفخم لعرفان جميل من لا يزال يستقل الحافلة الكهربائية أثناء سيرها). ولما كان لا بد من مسايرة العصر، فإنهم يستعيضون أحياناً عن طائر الدّخلة التقليدي بطائرة صارخة الألوان من اللآلئ، يقودها ملاك ساذج مزود، خلافاً لكل منطق، بجناحين عظيمين.

لكن كيف أوضح أن صور الموت هذه لا تنفصل أبداً عن الحياة؟ إن القيم هنا وثيقة الارتباط. والنكتة المحبذة عند القبارين الجزائريين، حين تكون عرباتهم فارغة، أن يصيحوا بالصبايا الجميلات اللائي يصادفونهن: "أتصعدين، يا حبيبتي؟". ولا شيء يمنع من أن نرى في هذا رمزاً، حتى ولو كان غليظاً. وقد يبدو أيضاً أن هناك شيئاً من التجديف في جواب المرء عند إنبائه نعياً، فيقول وهو يغمز بعينه: "مسكين، لن يغني بعد الآن"، أو كتلك الوهرانية التي لم تحب زوجها قط: "الله أعطاني إياه، والله استرجعه مني"، لكني لا أستطيع، بعد كل حساب، أن أدرك أي قدسية يمكن أن تكون للموت. أشعر، على العكس، بالمسافة الفاصلة بين الخوف والاحترام. إن كل شيء هنا يتنفس القرف من الموت في بلد يدعو إلى الحياة. ومع ذلك فتحت أشجار هذه المقبرة بالذات يضرب فتيان بلكور المواعيد وتستسلم الفتيات للقبل والمداعبات.

إنني أفهم جيداً ألا يتقبل الجميع هذا الشعب. فليس للذكاء هنا مقام كما في إيطاليا. إن هذا العرق لا يبالي بالروح. إن عبادته، إعجابه ينصب على الجسد. . فمنه يستمد قوته، ومجونه الساذج، وغروراً



صبيانياً تناله منه أحكام قاسية. فغالباً ما يوجه اللوم إلى "عقليته"، أي إلى أسلوبه في الرؤية والحياة. وصحيح أن بعض الإغراق في الحياة يترافق دوماً وبعض الظلم. ومع ذلك هوذا شعب بدون ماضٍ، بدون تقاليد، ولكنه لا يخلو من شعر ـ بيد أنه شعر أعرف حق المعرفة نوعيته، صلب، جسدي، بعيد عن الحنان، كشعر سمائهم، الشعر الوحيد الذي أنفعل به وأستجمع له ذاتي له في الحقيقة. إن نقيض الشعب المتمدين هو الشعب الخلاق. وإن لي أملاً مجنوناً في أن يكون هؤلاء البرابرة الذين يسترخون على الشطآن هم في سبيلهم، ربما عن غير علم منهم، إلى نحت وجه لثقافة تجد فيها عظمة الإنسان أخيراً وجهها الحقيقي. إن هذا الشعب الخائض بأسره في الحاضر يعيش بدون أساطير، بدون عزاء. لقد وضع كل ثرواته في هذه الأرض وبقي مذ ذاك بلا دفاع ضد الموت. إن هبات الجمال الجسمي موفورة لديه. ومعها ذلك الشره الغريب الذي يرافق دوماً الغنى الذي لا مستقبل له. إن كل ما يفعله الإنسان هنا يدل على النفور من الاستقرار وعلى اللامبالاة تجاه المستقبل. إنهم يستعجلون الحياة. وإذا كان سيولد من هذا فن، فإنه سيخضع لنفس كراهية الديمومة التي كانت دفعت الدوريين إلى نحت عمودهم الأول من الخشب. ومع ذلك، بلى، إنه لفي وسعنا أن نجد اعتدالاً في نفس الوقت الذي نجد فيه تجاوزاً في الوجه العنيف الضاري لهذا الشعب، في سماء الصيف هذه الفارغة من الحنان، التي تصلح كل الحقائق لتقال عنها والتي لم ترسم عليها أي ألوهية خادعة علائم الأمل أو الفداء. فبين هذه السماء وهذه الأوجه الملتفتة إليها، لا مكان لميتولوجيا، أو لأدب، أو



لأخلاق، أو لدين، إنما فقط حجارة، وجسد، ونجوم، وهذه الحقائق التي يمكن لليد أن تلمسها.

* * *

أن يحس المرء بارتباطاته بأرض ما، وبحبه لبعض البشر، أن يعرف أن هناك دوماً مكاناً يجد فيه القلب تجاويه، فهذا يقين وأكثر من يقين بالنسبة لحياة إنسانية واحدة. وهذا بلا ريب لا يمكن أن يكفي. لكن كل شيء يصبو في بعض اللحظات إلى موطن النفس هذا. "أجل، إنما إلى هناك يجب أن نعود". فهل من عجب أن نجد هذا اللقاء، الذي كان يتمناه أفلوطين، على الأرض؟ إن الاتحاد يترجم عن نفسه هنا بألفاظ الشمس والبحر. والقلب يحس به بفعل ما في الجسد من نكهة معينة تمنحه مرارته وعظمته. إنني أدرك أن ليست هناك سعادة فائقة الإنسانية، ولا أبدية خارج منحنى الأيام. إن هذه الثروات الزهيدة والأساسية، هذه الحقائق النسبية هي الوحيدة التي أنفعل لها. أما الحقائق الأخرى، "المثالية"، فليس لدي ما فيه الكفاية من الروح لأفهمها. وليس معنى ذلك أنه يجب أن نمارس الحيوانية، لكني لا أجد معنى لسعادة الملائكة. إنني أعرف فقط أن هذه السماء ستدوم أكثر مني. وما الأبدية إن لم تكن ما سيستمر بعد موتي؟ إنني لا أعبر هنا عن إعجاب بالمخلوق من حيث أصله. إنما أعني شيئاً آخر. ليس من السهل دوماً أن تكون انساناً، وأصعب من ذلك أن تكون انساناً نقياً. لكن أن تكون نقياً، فهذا معناه أن تبلغ موطن النفس الذي تصبح فيه قرابة العالم محسوسة، وتلتقي فيه ضربات الدم مع نبض الشمس



العنيف في الساعة الثانية ظهراً. من المعروف أن المرء يتعرف الوطن في لحظة ضياعه. وبلد الرأس بالنسبة لمن تعذبهم نفوسهم أشد العذاب هو البلد الذي يجحدهم. إنني لا أريد أن أكون فظاً ولا أن أبدو وكأنني أبالغ. لكن ما يجحدني أخيراً في هذه الحياة هو أولاً ما يقتلني. إن كل ما يعظِّم الحياة، يزيد في الوقت نفسه في عبثها. إنني أتعلم، في صيف الجزائر، أن ثمة شيئاً واحداً أفجع من الألم، أعني حياة إنسان سعيد. لكن هذا يمكن أن يكون أيضاً طريقاً نحو حياة أعظم لأنه يقود إلى الامتناع عن الغش.

كثيرون بالفعل يتظاهرون بحب الحياة ليتملصوا من الحب نفسه. إنهم يحاولون أن يتمتعوا وأن "يقوموا بتجارب" . لكن هذا مجرد تصور. فلا بد للإنسان أن يكون موهوباً فعلاً ليكون ممتاعاً. إن حياة الإنسان تتحقق دون عون من روحه، بتراجعها وتقدمها، بعزلتها وحضورها في آن واحد. وإني، إذ أرى رجال بلكور هؤلاء يعملون ويدافعون عن زوجاتهم وأطفالهم، دون أي تذمر في أغلب الأحيان، فلا أعجب أن يشعر الإنسان بخجل خفي. بديهي أنني لا أعلل نفسي بالأوهام. فليس ثمة حب كثير في الحيوات التي أتكلم عنها. وربما كان علي أن أقول إنه لم يبق فيها حب كثير. لكنها لم تتهرب من شيء، على الأقل. ثمة كلمات لم أفهمها قط حق الفهم، ككلمة الخطيئة. بيد أنني أعتقد أن هؤلاء الرجال لم يقترفوا خطيئة ضد الحياة. ذلك أنه إذا كانت هناك خطيئة ضد الحياة، فهي ليست اليأس منها بقدر ما هي الأمل في حياة أخرى، والتهرب من عظمة هذه الحياة الدنيا التي لا



يشفى لها غليل. إن هؤلاء الرجال ما عرفوا الغش. لقد كانوا آلهة الصيف مذ كانوا في العشرين بحميتهم للحياة، وهم ما زالوا كذلك، رغم حرمانهم من كل أمل، لقد رأيت اثنين منهم يموتان. كانا يطفحان بالهلع، لكن بصمت. وهذا أفضل. فمن علبة باندورا [1]، التي تعجّ فيها شرور الإنسانية، أطلق الإغريق الأمل بعد سائر الشرور، وكان أرهبها. أنني لا أعرف رمزاً يهيج النفس كهذا الرمز. ذلك أن الأمل، خلافاً لما يظن، يعادل الرضوخ. وأن تعيش، فهذا معناه ألا ترضخ.

هذه هي على الأقل الأمثولة اللاذعة لأصياف الجزائر. لكن ها إن الفصل يرتجف والصيف يترنح. ولقد بدأ تهطال أمطار أيلول الأولى، بعد الكثير من العنف والتخشب. وما هذه الأمطار إلا كالدموع الأولى للأرض المتحررة، وكأن هذا البلد قد امتزج بالحنان خلال بضعة أيام. لكن أشجار الخرنوب أخذت في الوقت نفسه تفوح برائحة حب على كل الجزائر. وعند المساء، بعد المطر، تستريح الأرض بأسرها، وبطنها ندية بزرع له أريج اللوز المر، بعد أن بذلت نفسها للشمس طوال الصيف. وهاهي هذه الرائحة تبارك من جديد عرس الإنسان والأرض، وتولّد فينا الحب الوحيد الرجولي حقاً في هذا العالم: الحب الفاني المعطاء.

---

١ . باندورا : حواء العالم السفلي كما جاء في الأساطير اليونانية . وقد أهداها زفس علبة تحتوي على كل الشرور ، وأرسلها إلى الأرض حيث تزوجها ابيمتيوس ، آدم اليونان ، وفتح العلبة مطلقاً كل الشرور ، ولم يبق في قعرها إلا الأمل .



ملاحظة

تحت عنوان "ملاحظة" كتب كامو صفحتين في نهاية "الصيف في الجزائر" وصف فيهما اللهجة العامية لسكان مدينة الجزائر. ولم يكن قصده من ذلك إلا أن يقدم للقارئ نموذجاً من لغة فرنسية خاصة هي اللغة التي أبدعها أهل الجزائر. لكن ترجمة هاتين الصفحتين مستحيلة مع الأسف. لهذا نكتفي بأن نشير إليهما مجرد إشارة.

"المترجم"




مكتبة
الفكر الجديد

الصحراء

يقيناً، إن الحياة هي إلى حد ما نقيض التعبير. وإذا ما صدقت كبار الرسامين التوسكانيين، فإنها الشهادة ثلاث مرات في الصمت، والسعير، والسكون.

لا بد من زمن طويل لندرك أننا نصادف شخصيات لوحاتهم كل يوم في شوارع فلورنسا أو بيزا. لكننا بتنا أيضاً لا نعرف كيف نميز الوجوه الحقيقية لمن يحيط بنا. لقد بتنا لا ننظر إلى معاصرينا، ولا يستوقفنا فيهم إلا ما يرشد خطانا، وينظم مسلكنا. إننا نفضل على الوجه ما فيه من شاعرية مبتذلة. أما جيوتو وبييرو ديلا فرانشسكا، فقد كانا يعرفان حق المعرفة أن حساسية إنسان ما ليست شيئاً. وفي الحقيقة، إن لجميع الناس قدراً من العاطفة. لكن العواطف الكبيرة البسيطة والخالدة التي يدور حولها حب الحياة، والبغضاء، والحب، والدموع، والأفراح، تنمو في أعماق الإنسان وتنحت وجه مصيره ـ كما في لوحة دفن المسيح لجيوتينو، وآلام مريم الصارفة بأسنانها. صحيح أني أرى في كنائس توسكانيا الفسيحة، جماً غفيراً من ملائكة وجوههم منقولة عن بعضها بعضاً إلى ما لا نهاية، لكنني أتعرف، في كل وجه من هذه الوجوه الصامتة الوالهة، عزلة ووحدة.



قد تكون المسألة فعلاً مسألة تصوير بارع، أو مشهد أخاذ، أو فروق دقيقة، أو إثارة انفعال. وقد تكون مسألة شعر. لكن إنما المهم الحقيقة. وإني لأسمي حقيقةً كلَّ ما يستمر. ومن هذا المنظور، فقد نحتاج إلى قدر من رهافة الفكر لنستنتج أن الرسامين وحدهم يستطيعون إرواء ظمئنا إلى هذه الحقيقة. ذلك أن لهم امتيازاً: فقد جعلوا من أنفسهم روائيي الجسم. ثم إنهم يشتغلون بتلك المادة العظيمة والزهيدة التي تدعى الحاضر. والحاضر يرتسم دوماً في بادرة. إنهم لا يرسمون ابتسامة أو حياء عابراً، حسرة أو انتظاراً، بل وجهاً بكل بروز عظامه وحرارة دمه. ولقد طردوا إلى الأبد من هذه الوجوه الجامدة في خطوط أزلية لعنة الروح: على حساب الأمل. ذلك أن الجسم يجهل الأمل. إنه لا يعرف إلا نبضات دمه. إن الأبدية الخاصة به قائمة على اللامبالاة. كما في "جلد المسيح" لبييرو ديلا فرانشسكا حيث يشف كل من المسيح المعذب والجلاد الغليظ الجثة بوضعيتهما، داخل باحة مغسولة حديثاً، عن التجرد ذاته. ذلك أن هذا العذاب ليس له تتمة. وأمثولته تتوقف عند إطار اللوحة. فما الداعي لأن ينفعل من لا ينتظر غداً؟ إن عدم التأثر هذا وعظمة الإنسان الذي بلا أمل هذه، إن هذا الحاضر الأبدي، هو ما سماه اللاهوتيون المتبحرون بالجحيم. والجحيم، كما لا يجهل ذلك أحد، هو أيضاً الجسد الذي يتوجع. إنما عند هذا الجسد يتوقف التوسكانيون، لا عند مصيره. ليست هناك رسوم تنبؤية. وليست المتاحف مكاناً للبحث عن أسباب للأمل.

حقاً إن خلود النفس يشغل، حتى قبل أن يستهلكوا نسغها، تفكير الكثير من المفكرين ذوي الإرادة الطيبة. لكن ذلك لأنهم يرفضون



الحقيقة الوحيدة المعطاة لهم والتي هي الجسد. ذلك أن الجسد لا يطرح عليهم مشكلات، أو إنهم على الأقل يعرفون الحل الوحيد الذي يقترحه: إنه حقيقة يجب أن تفنى. ومن هنا كانت له مرارة ونبل لا يجرؤون على النظر إليهما وجهاً لوجه. إن المفكرين ذوي الإرادة الطيبة يؤثرون عليه الشعر، لأنه من مشاغل الروح. وقد يكون ملموساً أنني أتلاعب بالألفاظ. لكن من المفهوم أيضاً أنني أريد في الحقيقة أن أكرس شعراً أكثر سمواً: الشعلة السوداء التي رفعها الرسامون الإيطاليون من تشيمابوي إلى فرانشسكا بين المشاهد التوسكانية الطبيعية وكأنها احتجاج صاح للإنسان الملقى به على أرض تحدثه عظمتها وضياؤها بلا انقطاع عن إله لا وجود له.

ولفرط اللامبالاة واللاحساسية قد يتوصل وجه ما إلى بلوغ العظمة الجمادية لمشهد طبيعي ما. وكما يتوصل بعض فلاحي إسبانيا إلى أن يشبهوا أشجار زيتون أراضيهم، كذلك تتمكن وجوه جيوتو، وقد تعرت من الظلال الباهتة التي تتجلى فيها الروح، من الاندماج بتوسكانيا نفسها من خلال الأمثولة الوحيدة التي تفيض بها: ممارسة الهوى على حساب الانفعال، مزيج من النسك والتمتع، تجاوب مشترك بين الأرض والإنسان، يتحدد الإنسان به، كالأرض، في منتصف الطريق بين البؤس والحب. ليس ثمة من حقائق كثيرة يركن إليها الإنسان. ولقد عرفت بداهة هذه الحقيقة، مساء يوم أخذ فيه الغسق يغرق الكروم وأشجار الزيتون في ريف فلورنسا بكآبة صامتة جليلة. لكن الكآبة في هذا البلد ليست إلا شرحاً للجمال. وفي القطار الذي كان ينسل عبر المساء كنت أشعر بشيء ما تنحل عقدته فيَّ. أأستطيع أن أشك اليوم في أن ذلك يسمى، إلى جانب وجه الكآبة، السعادة؟



أجل، إن الأمثولة التي يصورها هؤلاء الرسامون، تقدمها إيطاليا أيضاً من خلال مناظرها الطبيعية. لكن من السهل أن تفوتنا السعادة باعتبار أنها على الدوام غير مستحقة. كذلك شأن إيطاليا. ففتنتها، وإن كانت مفاجئة، ليست فورية دوماً. إنها تدعو، أكثر من أي بلد آخر، إلى تعميق التجربة التي يبدو عليها وكأنها تسلمها من المرة الأولى كاملة. ذلك أنها لا تفيض بالشعر إلا لتخفي حقيقتها بمهارة أكبر. إن تعاويذها الأولى هي طقوس نسيان: أشجار الدفلى في موناكو، جنوى المليئة بالزهور وروائح السمك، والأمسيات الزرق على الشاطئ الليجوري. وأخيراً بيزا ومعها إيطاليا التي أضاعت سحر الريفيرا السوقي قليلاً. لكنها تبقى سهلة المنال، فلمَ لا نرتضي لهنيهة من الزمن بفتنتها الحسية؟ أما عني أنا الذي لا يقسرني شيء حين أكون هنا (والمحروم من أفراح المسافر الملتاع لأن تذكرة مخفضة السعر تقسرني على البقاء مدة من الزمن في المدينة "التي أختار")، فإن صبري على الحب وعلى الفهم يبدو لي بلا حدود هذا المساء الأول الذي دخلت فيه بيزا متعباً جائعاً، فاستقبلتني على رصيف المحطة عشرة من مكبرات الصوت تزعق وتصب موجة من الأغاني العاطفية على جمهرة من الناس معظمهم من الشبان. إنني أعرف من الآن ما ينتظرني. فبعد هذا التوثب بالحياة، ستأتي لحظة فريدة، حين تغلق المقاهي أبوابها ويستتب الصمت من جديد فجأة، وأحث الخطى من شوارع قصيرة ومعتمة نحو قلب المدينة. نهر الآرنو الأسود والذهبي، الأنصاب الصفر والخضر، المدينة المقفرة، كيف أصف هذه الحيلة المفاجئة والبارعة التي تنقلب بها بيزا الساعة العاشرة مساء إلى ديكور غريب من الصمت، والماء، والحجارة؟



"كان ذلك في ليلة مماثلة، يا جيسكا!". هاهي الآلهة تتجلى، على هذا المسرح الفريد في نوعه، بصوت عشاق شكسبير.. علينا أن نعرف كيف نرضى بالحلم حين يرضى الحلم بنا. إنني أشعر من الآن في أعماق هذا الليل الإيطالي بالألحان الأولى لذلك النشيد الباطني الذي يأتي الناس إلى هنا بحثاً عنه. غداً، غداً فقط، سيتآلف الريف مع الصباح. أما هذا المساء فها أنا ذا إله بين الآلهة، وأمام جيسكا التي تهرب بـ "خطى يحملها الحب"، أضم صوتي إلى صوت لورانزو[1]. لكن جيسكا ليست إلا ذريعة، واندفاعة الحب هذه تتجاوزها. أجل، أعتقد ذلك. فلورانزو لا يحبها بقدر ما يعترف لها بالجميل لسماحها له بالحب. لكن لماذا أفكر هذا المساء بعاشقي البندقية وأنسى فيرونا؟ ذلك أن لا شيء هنا أيضاً يدعو إلى التعلق بعشاق تعساء. فلا شيء باطل كأن يموت المرء من أجل حب. إنما الحياة أجدر به. ولورانزو حياً خير من روميو دفيناً تحت الثرى، رغماً عن شجرة الورد فوق ضريحه. فكيف إذاً لا أرقص في هذه الأعياد للحب الحي، وأنام بعد الظهر على العشب الطفل في بيازا ديل ديومو، بين الأنصاب التي يتوفر الوقت دوماً لزيارتها، وأشرب من عيون المدينة حين يكون الماء ساخناً بعض الشيء لكن سلسبيلاً، وأرى من جديد وجه تلك المرأة التي كانت تضحك، بأنفها الطويل وفمها المزهو. يجب أن نفهم فقط أن هذا الطقس يهيء لإشراقات أسمى. إنها المواكب المتألقة التي تقود مريدي ديونيزيوس إلى معبد ايلوزيس. إنما في الفرح يحضّر الإنسان دروسه، وحين يبلغ الجسد أسمى درجة من النشوة يضحك واعياً ويكرس اتحاده بسر مقدس، رمزه الدم الأسود. وهاهو نسيان الذات،

---

١ . لورانزو وجيسيكا : من أبطال مسرحية "تاجر البندقية" لشكسبير . (المترجم) .



الذي أنهله من حميا إيطاليا الأولى هذه، يهيئني لهذا الدرس الذي يحررنا من الأمل ويخطفنا من ماضينا. يالحقيقة اللحظة والجسم المزدوجة: فكيف لا نتشبث بمشهد الجمال تشبثنا بالسعادة الوحيدة المنتظرة، التي ستسحرنا، لكن التي ستفنينا في الوقت نفسه!

* * *

ليست المادية المنفرة هي المادية التي نظن، بل المادية التي تريد أن تجعلنا نعتبر بعض الأفكار الميتة وقائع حية، وتريد أن تحوِّل الانتباه العنيد الصاحي الذي نخص به ما لا بد أن يموت فينا إلى الأبد، لتوجهه إلى أساطير عقيمة. إنني لأذكر أنه اجتاحني في فلورنسا، في دير الموتى، في سانتيسيما آنونزياتا، شيء ما حسبته عناء ولم يكن إلا غضباً. كانت تمطر. وكنت أقرأ ما كتب على شواهد القبور والنذور. كان هذا أباً حنوناً وزوجاً وفياً. وكان ذاك، على كونه خير الأزواج، تاجراً ذكياً. كانت هنا امرأة صبية، مثال لكل الفضائل، تتكلم الفرنسية "كأهلها"، وهناك فتاة كانت معقد آمال ذويها، لكن لم يكن شيء من هذا يمسني. لقد رضخ جميعهم تقريباً، حسب النقوش، للموت، وبلا ريب لأنهم كانوا يقبلون بسائر واجباتهم. ولقد غزا الأطفال اليوم المقبرة وراحوا يقفزون فوق الشواهد التي تريد أن تخلد فضائلهم. كان الليل قد أخذ يرخي سدوله، فجلست على الأرض، مسنداً ظهري إلى عمود. وابتسم لي كاهنٌ أثناء مروره. كان الأرغن، في الكنيسة، يعزف بصوت أصم، وكان اللون الدافئ لإيقاعه يعود للظهور بين الفينة والأخرى خلف صراخ الأطفال. كنت، وأنا مستند إلى العمود وحيداً، أشبه بشخصٍ أُخذ بخناقه فهتف بإيمانه كملاذ أخير. كان كل شيء فيَّ يحتج ضد مثل هذا



الاستسلام. كانت النقوش تقول: "يجب". ولكن لا ، وكان تمردي على صواب. عليٌّ أن أقتفي، خطوة خطوة، أثر هذا الفرح الذي يمضي لامبالياً لا يلوي على شيء كمسافر على الأرض. وكنت أقول لا لما سوى ذلك. كنت أقول لا بكل قواي. وكانت الشواهد تعلمني أن لا جدوى من هذا وأن سنَّة الحياة هي: "مع كل شمس شارقة شمس غاربة". لكنني لا أزال إلى اليوم لا أرى ما الذي تأخذه اللاجدوى من تمردي، وإن كنت أشعر شعوراً واضحاً بما تضيف إليه.

على كلٍ، لم يكن هذا ما أريد قوله. كنت أريد أن أعانق عن قرب أكثر حقيقة كنت أشعر بها في قلب تمردي بالذات، حقيقة كان ما قلته امتداداً لها ، حقيقة تبدأ من الورود البطيئة النضج لدير سانتا ماريا نوفيلا، لتنتهي عند نساء فلورنسا في صبيحة الأحد تلك، بأثدائهن الحرة تحت أثواب خفيفة وبشفاههن الندية. فعند زاوية كل كنيسة تُبسط، في يوم الأحد ذاك، باقات من الزهور، دسمة لامعة، متلألئة بالماء. فأجد فيها نوعاً من "السذاجة" كما أجد فيها في الوقت نفسه مكافأة. فقد كان في هذه الزهور، كما في هاتيك النسوة، وفرة سخية، وما كنت أجد أن الرغبة في هاتيك النسوة تختلف كثيراً عن الرغبة في هذه الزهور. إن القلب الطاهر نفسه يكفي لذلك. ولا أقول إن الرجل يشعر غالباً بطهارة قلبه. لكن واجبه، في هذه اللحظة على الأقل، أن يسمي ما طهره مثل هذا التطهير الفريد حقيقة، حتى ولو كان هناك احتمال في أن تبدو هذه الحقيقة في أعين البعض تجديفاً، كما كنت أفكر في ذلك اليوم. كنت قد أمضيت الصباح في دير للرهبان الفرنسسكانيين، في فيزولا ، مفعماً برائحة أشجار الغار. وقد مكثت لحظات طويلة في باحة صغيرة مكتظة



بالزهور الحمر، بالشمس، بالنحل الأصفر والأسود. وفي إحدى الزوايا كانت هناك مسقاة خضراء مرمرية. وكنت قد زرت، قبل مجيئي، صوامع الرهبان، ورأيت طاولاتهم الصغيرة المزدانة بجمجمة ميت. إن ذلك البستان يشهد الآن على صبواتهم. ثم عدت أدراجي إلى فلورنسا، محاذياً التل الذي ينحدر نحو المدينة الواهبة نفسها بكل أشجار سروها. وبدا لي أن روعة العالم تلك، هاتيك النسوة وتلك الأزهار هي جميعها تبرير لأولئك الرجال. لم أكن واثقاً من أنها ليست أيضاً تبريراً لجميع الذين يعرفون أن منتهى الفقر يلتقي دوماً مع ترف العالم وغناه. كنت أشعر بإيقاع واحد مشترك بين حياة أولئك الفرنسسكانيين، المحبوسين بين الأعمدة والزهور، وبين حياة الشبان الذين يمضون كل السنة تحت الشمس على شاطئ بادوفاني في الجزائر. فلئن كانوا يزهدون، فإنما ذلك من أجل حياة أعظم (لا من أجل حياة أخرى). وربما كان هذا هو المعنى الحقيقي الوحيد على الأقل لكلمة "تجرد"[1]. فالتعري ينطوي على الدوام على معنى من الحرية الجسمانية. وهذا التآلف بين اليد والأزهار - هذا التفاهم الحبي بين الأرض والإنسان المتحرر من البشري - آه! إنني سأتخذه ديناً لي لو لم يكن بالأصل ديني. كلا، ربما لم يكن في الأمر تجديف إذا قلت إن الابتسامة الداخلية في وجوه القديس فرانسوا التي رسمها جيوتو تبرر من يستطيب السعادة. ذلك أن الأساطير للدين هي كالشعر للحقيقة، أي أنها أقنعة مضحكة يحجب بها هوى الحياة.

أأتمادى أكثر من ذلك؟ إن الرجال الذين يعيشون، في فييزولا، أمام أزهار حمر هم أنفسهم الذين يزينون صومعتهم بجمجمة تغذي تأملاتهم.

---

١ . DENUEMENT : تعني بالفرنسية التجرد من المال كما من الثياب . "المترجم" .



فلورنسا عند نوافذهم والموت على طاولاتهم. إن بعض الاستمرار في اليأس قد يولد الفرح. إن الروح والدم، عند بلوغ الحياة درجة معينة من الحرارة، يمتزجان، ويعيشان بيسر على تناقضات، غير مباليين لا بالواجب ولا بالإيمان. إذن فلن أدهش إذا وجدت أن يداً حاذقة قد لخصت على أحد جدران بيزا مفهومها الغريب عن الشرف على هذا النحو: "البرتو يفعل الحب مع أخته بالذات". ولن أدهش إذا كانت إيطاليا موطن الحب السفاح، أو على الأقل، وهذا أكثر دلالة، موطن الحب السفاح المعترف به. ذلك أن الطريق الذي يذهب من الجمال إلى الخلود ملتو، لكنه مؤكد. إن العقل، بعد أن يأسره الجمال، يبيت لا يتغذى إلا من العدم. وأمام هذه المشاهد التي يضيق الصدر لعظمتها، تكون كل فكرة من أفكاره نفياً للإنسان. وسرعان ما يضحي الإنسان أمام العالم، بعد أن تولى هذا القدر من القناعات المرهقة نفيه وتمويهه وتشويهه، مجرد لطخة ممسوخة لا تعرف من حقيقة إلا حقيقة سلبية، أولا تعرف من العالم إلا لونه أو شمسه. إن المشاهد التي بمثل هذا الصفاء تيبِّس الروح وجمالها لا يطاق. إن هذه الاناجيل من الصخر، والسماء، والماء، تقول أن لا شيء يبعث ويردّ إلى الحياة. وفي أغوار هذه الصحراء الرائعة بالنسبة إلى القلب، تبدأ التجربة من الآن فصاعداً بالنسبة لرجال هذا البلد. فأي عجب إذا كانت النفوس السامية أمام مرأى النبل هذا، في الهواء المشبع بالجمال، لا تقتنع بأن العظمة يمكن أن تتحد بالطيبة؟ إن عقلاً بلا إله يتممه يبحث عن إله فيما ينفيه.

لقد هتف بورجيا حين وصل الفاتيكان: "الآن وقد منحنا الله البابوية، علينا أن نهرع إلى التمتع بها". ولقد فعل كما قال. ولقد



أحسن القول إذ قال: علينا أن نهرع. إن في هذه الكلمة يأساً لا تعرفه إلا النفوس المفعمة.

ربما كنت مخطئاً، ذلك أنني بعد كل شيء كنت سعيداً في فلورنسا وكثيرون غيري قبلي. لكن ما السعادة إن لم تكن ذلك التجاوب البسيط بين كائن وبين الوجود الذي يعيشه؟ وأي تجاوب مشروع يمكن أن يقيم وحدة الإنسان والحياة إن لم يكن وعيه المزدوج برغبته في الديمومة وبقضاء الموت المقدر عليه؟ فلنتعلم من ذلك على الأقل ألا نعتمد على شيء وأن نعتبر الحاضر الحقيقة الوحيدة الممنوحة لنا "علاوة". إنني أفهم أن يقال لي: إيطاليا، البحر المتوسط، أراضٍ عريقة كل شيء فيها على قدّ الإنسان. لكن أين إذن، ألا أروني الطريق؟ دعوني أفتح عيني لأبحث عن قدري وكفايتي! أو بالأحرى بلى، إنني أرى: فييزولا، جميلة، والمرافئ المشمسة. قدر الإنسان؟ الصمت والحجارة الميتة. وما سوى ذلك يخص التاريخ.

* * *

لكن ليس لي أن أقف هنا. ذلك أنه لم يكتب أن السعادة منفصلة حتماً عن التفاؤل. إنها مرتبطة بالحب ـ وهذا ليس بالشيء نفسه. وإنني أعرف أويقات وأماكن يمكن أن تظهر فيها السعادة لاذعة المرارة إلى حد يفضل عليها معه وعدها. لكن هذا لأنه لم يكن لدي، في تلك الأويقات أو تلك الأماكن، ما فيه الكفاية من القلب لأحب، أي لأتوقف عن العزوف. وما يجب أن أقوله هنا إنما هو دخول الإنسان في أعياد الأرض والجمال. ذلك أنه يتجرد أمام ربه مما تبقى له من شخصية، كما يتجرد المهتدي من آخر ثيابه قبل العماد. أجل، ثمة سعادة أسمى تبدو معها



السعادة باطلة. كنت، في فلورنسا، أرتقي بستان بوبولي، حتى أبلغ هضبة أطل منها على جبلٰ الزيتون ومشارف المدينة حتى الأفق. كانت أشجار الزيتون، فوق كل تل من تلك التلال، شاحبة كأدخنة طفيفة، ومن خلال الضباب الخفيف الذي تكونه كانت تبسق رؤوس أشجار السرو الصلبة، الخضر من قريب والسود من بعيد. كانت سحب غليظة تلطخ السماء التي كنت أرى زرقتها العميقة. ومع نهاية العصر، كان يخيم نور لجيني يصبح فيه كل شيء صمتاً. كانت قمة التلال غارقة في الغيوم باديْ ذي بدء. لكن سرعان ما هب نسيم كنت أشعر بنفحه على وجهي. وتشتتت السحب، خلف التلال، كستار يفتح. وفي اللحظة عينها، خيل إلي أن أشجار السرو في القمة قد تعاظم حجمها باندفاعها مرة واحدة في الزرقة التي انقشعت فجأة. وتصاعد معها بتؤدة التل كله ومشهد أشجار الزيتون والصخور. وجاءت سحب أخرى. وأسدل الستار. وهبط التل من جديد بسروه وبيوته. ثم راح النسيم نفسه الذي فتح هنا ثنايا السحب الكثيفة يخيطها من جديد هناك، بعيداً فوق تلال أخرى تتلاشى رويداً رويداً.

كان العالم، بتنفسه الكبير هذا، يرسل زفيره بين ثانية وأخرى، فينبعث من هذا الزفير لحن متسلسل متباعد من الصخر والهواء على مقياس سلّم العالم. وفي كل مرة، كان اللحن يخف توتره، فأستعيد المزيد من الهدوء إذ أتتبعه من مسافة أبعد. وحين بلغت منتهى هذا المدى الذي كان قلبي ينفعل له، عانقت بنظرة خاطفة هرب التلال وهي تتنفس جميعاً معاً فكأنني عانقت معها نشيد الأرض قاطبة.

إن ملايين العيون، أعرف ذلك، قد تأملت هذا المشهد؛ ولقد كان،



في نظري، كبسمة السماء الأولى. كان يخرجني عن نفسي بالمعنى العميق لهذه الكلمة. كان يؤكد لي أن لا جدوى من أي شيء، لولا حبي وصيحة الصخر الجميلة هذه. إن العالم جميل، ولا سلام البتة خارجاً عنه. لقد كانت الحقيقة الكبرى التي يعلمني إياها بصبر أن الذهن لا شيء، وكذلك القلب نفسه؛ وأن الصخر الذي تدفئه الشمس، أو السرو الذي يتعاظم حجمه بانقشاع أديم السماء، هما بمثابة حدّين للعالم الوحيد الذي تتخذ فيه عبارة "هذا عين الصواب" معنى : أي الطبيعة من دون بشر. وهذا العالم يلاشيني. يطل بي على النهاية. ينفيني بدون غضب. كنت أتجه، في ذلك المساء الذي يخيم على ريف فلورنسا ، نحو حكمة كل شيء فيها قد طوع، لولم تغرورق عيناي بالدموع ولو لم ينسني النحيب الكبير للشعر الذي تطفح به نفسي حقيقة العالم.

* * *

عند هذا التأرجح يجب أن أتوقف: عند هذه اللحظة الفريدة التي تطرد فيها الروحانية الأخلاق، وتولد السعادة من غياب الأمل، وتجد الروح تبريرها في الجسد. وإذا كان صحيحاً أن كل حقيقة تحمل معها مرارتها ، فصحيح أيضاً أن كل نفي يحتوي على برعم "نعم". ونشيد الحب القانط هذا الذي يولد من التأمل يمكن أن يمثل أيضاً أنجع قواعد العمل. فمسيح بيير ديلا فرانشسكا يخلو وجهه من أية نظرة إنسانية، عند انبعاثه من القبر. وما من أثر من سعادة مرسوم على وجهه. إنما فقط عظمة مستوحشة لا روح لها ، لا أستطيع منع نفسي من اعتبارها تصميماً على الحياة. ذلك أن الحكيم، مثله مثل الأبله، يعبر قليلاً. لقد خلبت لبي هذه العودة.



لكن هذه الأمثولة، أأنا مدين بها لإيطاليا أم قد استخلصتها من قلبي؟ لا ريب في أنها تجلت لي هناك. لكن إنما ذلك لأن إيطاليا، كغيرها من الأمكنة المتميزة، تقدم لي مشهد جمال يموت فيه البشر رغم ذلك. هنا أيضاً لا بد أن تفنى الحقيقة، وهل ثمة ما يهيج الوجد كهذا؟ ماذا أستطيع أن أفعل بحقيقةٍ ليس مقدّراً لها أن تفنى حتى ولو كنت أتمناها؟ إنها تفوق مستواي. ولو أحببتها لكان ذلك مني تكلفاً. ونادراً ما نفهم أن الإنسان لا يتخلى أبداً بداعي اليأس عما كان تقوم عليه حياته. إن النزوات والخيبات تقود إلى حيوات أخرى، ولا تدل على أكثر من تعلق متخوف بدروس الحياة. لكن قد يحدث أن يشعر الإنسان، عند بلوغه درجة معينة من الصحو، أن قلبه منغلق، فيقلب ظهر المجن، دون تمرد أو مطالبة، لما كان يعتبره حتى تلك اللحظة حياته، أعني تشرده. و إذا كان رامبو قد انتهى في الحبشة دون أن يكتب سطراً واحداً، فلم يكن ذلك حباً بالمغامرة، أو زهداً في الكتابة. إنما "كان ذلك هكذا" ، ولأننا نسلِّم في النهاية، حين يبلغ وعينا درجة معينة، بما كنا نجتهد جميعاً في ألا نفهمه، كل حسب القدر المقدّر له. وواضح أن المقصود هنا الشروع برسم جغرافية لصحراء معينة. لكن هذه الصحراء الفريدة لا يشعر بها إلا من كان قادراً على الحياة دون أن يروي ظمأه بسراب ماءٍ أبداً. وآنذاك، آنذاك فقط، تعمر هذه الصحراء بمياه السعادة الحية.

تحت متناول يدي، في بستان بوبولي، تتدلى ثمار ذهبية عظيمة من ثمار الكاكي، ينفلق لبها عن سلاف دسم. ومن هذا التل الرهيف إلى هذه الثمار السيالة الرب، ومن الأخوّة الخفية التي تؤالفني مع العالم إلى الجوع الذي يدفعني نحو اللحم البرتقالي فوق يدي، كنت ألتقط التأرجح



الذي يقود بعض البشر من الزهد إلى المتعة ومن التجرد إلى الإسراف في اللذة. كنت أعجب ولا أزال بهذا الرابط الذي يوحّد الإنسان بالعالم، بهذا الانعكاس المزدوج الذي يمكن لقلبي أن يتدخل فيه ويملي سعادته إلى حد معين بحيث يستطيع العالم عندئذ أن ينجزها أو يهدمها. إيه فلورنسا ! إنك من الأمكنة القليلة في أوربا التي فهمت فيها أنه في قلب تمردي يكمن رضوخ. لقد تعلمت، تحت سمائها الممتزجة بالدموع والشمس، كيف أرضخ للأرض وأحترق في شعلة أعيادها القاتمة. كنت أشعر.. لكن أي كلمة؟ أي فيض؟ كيف أكرس تآلف الحب والتمرد ؟ الأرض! في هذا المعبد الكبير الذي أقفر من آلهته، تنتصب أصنامي جميعاً على قواعد من خزف.



الفهرس



ألبير كامو وُلد في ٧ تشرين الثاني ١٩١٣ في الجزائر من أب فرنسي وأم اسبانية.

رغم أنه كان روائياً وكاتباً مسرحياً في المقام الأول إلا أنه كان فيلسوفاً. وكانت مسرحياته ورواياته عرضا أميناً لفلسفته في الوجود والحب والموت والثورة والمقاومة والحرية، وكانت فلسفته تعايش عصرها، وأهّلته لجائزة نوبل فكان ثاني أصغر من نالها من الأدباء.

وتقوم فلسفته على كتابين هما "أسطورة سيزيف" ١٩٤٢ و"المتمرّد" ١٩٥١ أو فكرتين رئيسيتين هما العبثية والتمرّد ويتّخذ كامو من أسطورة سيزيف رمزاً لوضع الإنسان في الوجود، وسيزيف هو هذا الفتى الإغريقي الأسطوري الذي قدّر عليه أن يصعد بصخرة إلى قمة جبل، ولكنّها ما تلبث أن تسقط متدحرجة إلى السفح، فيضطر إلى إصعادها من جديد، وهكذا للأبد.

سنة ١٩٤٧ أصدر رواية "الطاعون" التي أعطته شهرة عالمية وحصلت على جائزة النقاد الفرنسيين.

توفي في حادث سيارة عام ١٩٦٠. ورثاه صديقه سارتر قائلاً: إنه أحد أخلاقيي العالم الكبار المؤمنين بالإنسان.

مكتبة نوبل ١٩٥٧



ISBN 284305877-5
9 782843 058776
تصميم الغلاف رولا ماجد